الدكتور محمد الجوادي

رحلات شاب مسلم

في الهند وبريطانيا وأمريكا وإيطاليا

دار جهاد للنشر والتوزيع
٢٠٠٣

رحلات شاب مسلم

في الهند وبريطانيا وأمريكا وإيطاليا

رحلات شاب مسلم

في الهند وبريطانيا وأمريكا وايطاليا

الكاتب:

د. محمد الجوادى

الطبعة: الثالثة ٢٠٠٣

الناشر: جهاد للنشر والتوزيع

٢٦ ش اسماعيل أباظة - لاظوغلى

ت: ٧٩٦٤٧٨٣.

رقم الإيداع: ٧٨٤٧/٢٠٠٣

الترقيم الدولى: ISBN

977 _ 5684 _ 68 _4

الإهـــداء

إلى شقيقى عبدالوهاب

أرجو أن يقوى عزمه

وألا يشبع نهمه

محمد الجوادى



مقدمة الطبعة الثالثة

هذه هى الطبعة الثالثة من هذه الرحلات، لم تنج من تعديلاتى وتنقيحاتى وإضافاتى شأنها فى هذا شأن الطبعة الثانية، وكأنما أكتب هذا الكتاب لمرة أخرى أرجو الله سبحانه وتعالى ألا تكون الأخيرة.

والحق أنى ما شرعت فى قراءة التجارب المطبعية لهذه الطبعة حتى وجدتنى مشغوفا بها أشد ما يكون الشغف، وقد عجبت لنفسى أن تمكنت منى كل هذه الأفكار منذ أكثر من عشرين عاماً، وقد بدا لى أن الزمن لم يزدنى إلا ضعفاً فى القدرة على المعرفة، وعلى الإدراك، وعلى التفكير، ولكنى أعود لأحدث نفسى أن هذا الإدراك هو نعمة فى حد ذاته، وأنه تكفل لى بما لم تتكفل به المعرفة.

وكلى أمل أن تلقى هذا الطبعة ما لقيت الطبعتان السابقتان من إقبال القراء ونقدهم وتعليقاتهم الصائبة والمصوبة، وأن تثير فى الشباب رغبات الاستطلاع والتأمل والقراءة والسفر.

والله سبحانه وتعالى أن يعيننى على شكر نعمائه، وأن يهدينى سواء السبيل.

مارس ٢٠٠٣.

د. محمد الجوادى

أحمد الله أن مكننى من أن أقدم اليوم الطبعة الثانية من هذا الكتاب، وأرجو أن يخرج القارئ بما أردت أن أقدمه من رؤية تستشرف الآفاق الرحبة لمستقبلنا المشرق إذا ما استطعنا الإفادة من تجارب الآخرين ، ذلك أنى مؤمن أشد الإيمان بحتمية الإطلاع - بمختلف مستوياته وصوره - على الحضارة التى تتسابق فى إثبات ذاتها من حولنا ، وبدون هذا الإطلاع لن نستطيع لا اللحاق بما فاتنا ، ولا تعويض لهذا الذى فات ، ولا السعادة بما هو آت.

ولأنى مؤمن أشد الإيمان بهذا الذى أقول فإنى أحس بالتقصير الشديد تجاه وطنى وتجاه أبناء هذا الوطن ، ولهذا فإنى أدعو الله سبحانه أن يوفقنى إلى تقديم ما سجلته من قبل، على عجل وفى قصاصات متفرقة، من أمر رحلات كثيرة كنت ولا زلت تواقا إلى تقديمها لأبناء وطنى.

ولا أنكر أنى فى كثير من الأحيان استمتع بقراءة هذا الذى كتبت وهو مطبوع ، ولا أعرف بالطبع السر وراء ذلك ، ولكن هذا لا يمنعنى من أن أقنع نفسى بالشعور بالسعادة لأن قارئاً سعد بهذا المطبوع ولو كان هذا القارئ هو الكاتب نفسه.

ومع هذا فقد وردت لى رسائل كثيرة تعبر عن تقدير القراء الكرام الذين لم يبخلوا علىّ بالتقدير ، وقد أردفت بهذا الكتاب رسالتين من هذه الرسائل الكثيرة بالإضافة إلى مقالين كريمين كتبهما الأستاذان أحمد زكى عبدالحليم، وشعبان أبو ذر فى مجلة حواء ، وجريدة النور.

❑

وأحب أن أعترف أنى لم أضع التشويق ضمن أهدافى من كتابة هذه الرحلات ، ومع هذا فإنى لم أكن ضد التشويق بل كنت أستدعيه ما استطعت ، وأرجو أن أكون قد وفقت فى تقديم نص لا يخلو من الجدية، ولا من الجدة، ولا من التشويق، ولا من الابتكار.

كما أحب أن أعترف أنى فى كثير من الأحيان لم أكن معرضاً للصدمة مما رأيت ، وفى الحقيقة فإنى لم أكن أعرف السر فى ذلك فى المراحل الأولى لالتقائى ببلاد الغربة ، ولكنى علمت فيما بعد أن السبب فى ذلك كان بسيطاً جدا، وهو أنى لم أكن أسافر إلى أى مكان إلا بعد أن أكون قد قرأت وسمعت عنه من مصادر كثيرة إلى الدرجة التى كانت تجعلنى أرى ما أرى بعد أن انطبعت عنه فى ذهنى فكرة مسبقة ، وهكذا قُدِر لى أن أُحرَم من الاندهاش ، وهكذا أيضا قدر للقارىء لرحلاتى أن يُحرَم هو الآخر من التمتع باندهاش المؤلف.

ولا زلت أعتقد أن كتابة الرحلات هى أبرز صور إسهامات الأدب فى صنع التعاون الدولى والسلام العالمى ، ذلك أنه بدون فهم «الآخر» يستحيل على «الذات» أن تتقبل هذا «الآخر» .

وأدب الرحلات يقدم هذا الفهم فى صورة جميلة وفعالة فى ذات الوقت .

لا أريد أن أطيل على القارئ الذى سيطالع بعد قليل مقدمة أخرى كتبت للطبعة الأولى قبل أن يجد نفسه يطالع كتابا هو فى حد ذاته مقدمة كبيرة ، ولكنى أحب أن أضيف فى هذه المقدمة التى أكتبها للطبعة الثانية اعتذاراً للقارىء بما أزعجه به من تصويرى فقر الهند وقلة حيلتها فى بعض الأمور ، ومن جفاف الحياة الأمريكية وأهلها فى بعض الفقرات ، ومن فوضى إيطاليا والإيطاليين ، ومن تركيزى فى الحديث عن بريطانيا على ندوة البيئة ، ولكنى وقد فرغت من قراءة هذا الكتاب للمرة الأخيرة منذ يومين [لأكتب مقدمة الطبعة الثانية] ما زلت أشعر بمدى حبى لبلدى ووطنى وشعبى فيما أكتب ، فأنا أرى مشكلات وطنى فيما يعرض لى من مشكلات العالم من حولنا ، وأنا أعتقد أن واجبى أن أصدق القول حين أتحدث إلى مواطنىّ ، ولا يكون الصدق بذكر الوقائع فحسب ولكنه لابد أن يمتد إلى صدق النوايا والأحاسيس تجاه ما أخاف على وطنى منه ، أو ما أخافه على وطنى.

❑

والحق أنى حين كنت أقرأ هذا الكتاب منذ قليل وقد مضت على كتابته ثلاث عشرة سنة كنت أحس أننى لم أستطع أن أتخلص من معاناة مصر التى كانت فى خاطرى فى كل كلمة كتبتها فى هذا الكتاب ، وقد صارحنى كثير من الأصدقاء بهذا الشعور وأضافوا أنهم كانوا ينتقلون معى فى رحلاتى ، ولكنهم

كانوا يحسون أننى نقلت مصر معى فى الرحلة التى ارتحلتها بهم ، وأحب أن أعترف أن هذا مما يسعدنى فى المستقبل، ومما أسعدنى فى الماضى كذلك .

بقىّ أن أشير إلى أنى نشرت فى عام ١٩٩٥ كتاباً بعنوان «شمس الأصيل فى أمريكا» يتناول رحلتى العلمية فى كليفيلاند ، وكليفيلاند كلينك، وكنت قد انتهيت من كتابته فى ١٩٩١ ولكنه لم يصدر إلا فى ١٩٩٥ ، وأرجو الله أن يوفقنى لأن أنتهى من إعداد كتابين آخرين فى نفس المجال لم أجد الوقت بعد لإعدادهما للنشر .

وإنى لأدعو الله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذا الذى كتبت ، وأكرر الحمد له سبحانه وتعالى به ومنه التوفيق .

يناير ١٩٩٦ **د. محمد الجوادى**

مقدمة الطبعة الأولى

هل يكون من الممكن أن أستأذن القارئ فأذكر له أنه لم يدر بخلدى من قبل أن أكون كاتب أدب رحلات ؟

أم أسأل المعذرة لقلمى إذا لم يكن فى إمكانه أن يصل مع القارئ فى الصفحات القادمة إلى مستوى كان يأمله حين بدأ قراءة هذا الكتاب؟

أم أمضى مع بارقة الأمل التى لا تفتأ تظهر لى - ولو على فترات متباعدة - فأحس فى تلك السويعات أنْ قد يكون هناك نفع يُرجى من هذه الصفحات .

بمثل هذه البارقة الضعيفة نشأ الحافز الذى دفعنى إلى أن أنشر على بعض الناس هذا اليوم هذه الصفحات أو هذه الفقرات المتباعدة مع اعترافى أن قدر

الفن أو التفنن فيها قليل وقليل جداً ، ولكن الذى يجعلنى أنظر إليها بحنان أكبر هو ذلك الصدق الذى كان يسيطر على جوارحى وهى تسطر هذه الذكريات فى حينها ، وقد كنت حين أكتبها قد فرغت لنفسى لا أسمع إلا هاتفها الداخلى ، وهى بعيدة عن بيئة ألفتها وعهدتها ، محاطة ببيئات أخرى متنوعة فى أقصى الشرق أو فى أقصى الغرب ، تحت الجليد أو فوق السحاب تعانى من زمهرير البرد أو الحر مع أنها تتقيه بما نشرت التكنولوجيا من أجهزة التكييف .

كنت إذاً أسجل لهذه النفس الضعيفة انطباعاتها حين تخلو إلى هذا القلم فتملى عليه ما أملته عليها الطبيعة ، وما أَملته هى من الطبيعة .. وكيف تفاعل الإملاء مع الأمل .. وكيف أفرز تأملها شيئاً ذا بال أو غير ذى بال على الإطلاق.

❑

كان من حظى أن أخرج إلى العالم من حولنا مرة وراء مرة ، ومع أنى خرجت إليه فى سن مبكرة إلا أن هاتفًا داخليًا كان يسيطر علىّ أن أستغل كل ساعة كنت فيها فى الخارج لأمتد إلى بقاع جديدة من الأرض..

كنت أواجه مراراً مشكلة تأشيرات الدخول إلى الحد الذى جعلنى أتمنى لو كان لكل مصرى مهابة جواز السفر الأمريكى الذى تفتح له الأبواب ..

وكنت أواجه ضيق الوقت المتاح أمام ترتيب برنامج أية زيارة من هذه الزيارات..

وكنت أواجه مصاعب بيروقراطية لا أول لها ولا آخر ..

ولا أنكر أنى كنت كثيراً بل غالبًا - ما أواجه ضيق ذات اليد، على الأقل أن تفى بغرض ذات النفس ..

وكنت أواجه كثيراً جداً من مصاعب الحياة التى يواجهها الناس الذين أزور بلادهم .. أو التى يواجهها الناس حين يزورون بلاداً غير بلادهم.

ولكننى مع ذلك كله كنت أسعد ما أكون حظاً .. كان الإعلام المتقدم فى جملته خير معين لى على تنظيم برامجى ، وحشد هذه البرامج بالكثير من الأعمال والزيارات ، وكان من السهل استكشاف كثير من الأحداث والاجتماعات والمقابلات فى آن واحد وكان من اليسير الوصول إلى كثير من الأفراد والهيئات بأقل جهد متى استطاع الإنسان فى سعيه نحو تحقيق ذلك كله أن يضع قدمه على الطريق الصحيح للمعلومات فى عصر المعلومات .

ومن دون الدخول إلى التفاصيل التى هى محل الصفحات التالية يكفى أن يعلم القارئ أن فى وسع المرء على أى رصيف فى الولايات المتحدة الأمريكية أن يسأل عن عنوان شخص فى الولايات المتحدة كلها فى أى بلد إذا استعمل - مجاناً - التليفون القريب منه . ما عليه إلا أن يدير رقم الكود الخاص بهذا البلد (والأرقام فى العادة موضوعه على لوحة فى كشك التليفونات الذى لا يخلو منه رصيف فى طول الولايات أو عرضها) وأن يُتبع هذا الرقم برقم استعلامات التليفونات وهو موحد لكل البلاد ، وعندئذ يستمع (أو تسمع) الموظف ، ويدق حروف الاسم على مفتاح الكمبيوتر فيظهر على الشاشة للفور رقم تليفون هذا الشخص وعنوانه !! .

وإذاً فقد لا يكون مطلوبًا من المرء اليوم - أو غداً - فى عالمنا المعاصر إلا أن يعرف كيف السبيل إلى قنوات المعلومات ، وعندئذ سيكفيه أنه يحفظ الحروف الأبجدية للغة التى يتعامل معها بالترتيب .. وسوف يجد الفهارس كلها تبعا

للأبجدية، وأمام (المداخل) فى الموسوعات أو الأدلة أو الفهارس من معلومات أو بيانات أو حقائق.

❑

قد لا يكون من حقى أن أنصرف بالقارئ إلى نصائح ، ولكن حياتنا الإنسانية اليوم توجب علىّ أن أقوم بهذا الواجب مع ما قد يُظن من قلمى المغامر أنها مشاعر غرور أو ترفع .. فلنتوسط فى الأمر ولنقل إنها مجرد إرشادات تمليها التجربة.

وإذا كان الأمر كذلك فليسمح لى القارئ أن أؤكد له ما يعرفه سلفا من أن خير ما ينبغى لنا أن نُعَلِمه لأنفسنا هو حب المعرفة ، وكيف السبيل إلى المعرفة ..

فإذا أحسسنا أنه لم يكن لنا نصيب، كأمة، أن نستمتع بهذا الحب ولا بالرغبة إليه بالقدر الكافى فلننصرف إلى الجيل القادم، لا لنعلمه هذا، ولكن لنعمل على ألا يُحَرم من هذه الفرصة.

ولقد يشاركنى بعض القراء الرثاء وهم يدركون حقيقة أن الطالب الذى يجهل طريقة الكشف فى معاجم اللغة العربية كلية ، جملة وانتهاء ، لن يناله من الخسارة بمنطق الدرجات إلا درجة واحدة [على الأكثر] فى امتحان الشهادة الإعدادية العامة !! ... ولكنى أريد لهؤلاء أن يكون عزاؤهم أن الذين يستطيعون هذا الكشف سوف ينالون من متعة الحياة فى عصر المعلومات متعة المعرفة.

سوف يدرك هؤلاء وأولئك [وسوف أعاود أنا نفسى الإدراك] أن إنساناً أوتى القدرة على التعامل مع المعلومات والوصول إلى الجزئية الصغيرة وسط هذا

الخصم الكبير ، سوف يكون أسعد حالاً وأهنأ بالا من الذين أتيحت لهم الخبرة المرة تلو المرة.

❑

لم تعد الحياة اليوم سواء فى الرحلات تحتاج إلى الخبرات الشخصية المحدودة، ومع هذا فإنها إذا احتاجت إليها فلن تحتاجها بقدر عشر معشار ما تحتاج إلى طريقة التعامل مع المعلومات .

ولقد يُقال إن طالباً فى المدرسة الإعدادية اليوم إذا وعى ما فى عدد أسبوعى من المجلات العامة ذائعة الانتشار فإنه يكون قد حصل من العلم أضعاف ما كان يعرف الجهابذة عن العلم فى العصور الوسطى .. ولقد يكون هذا قريباً جداً إلى الصواب .. غير أن الحقيقة ، وهى التى تفوق الصواب المجرد فى قضية من القضايا ، تبقى غير ذلك بكل تأكيد.

وأنت تستطيع أن توافق الذين يقولون بفقدان الإيمان أو أن تساير الذين يقولون بضياع الفلسفة فى غمار السرعة ، أو أن تحترم وجهة نظر الذين يقولون إن البعد الثانى قد طغى على البعد الثالث ، فحلت الكثرة محل العمق والسعة محل التعمق .. ولكنك مع هذا تبقى مع نفسك وهى تؤمن تمام الإيمان أن البحث عن طعامك بدءاً من مكوناته فى الأسواق شىء ، وأن مجرد التهامك طعاماً جاهزاً فى غمرة وليمة كبيرة شىء دونه بكثير .. مع أن طعامك قد لا تتعدى أصنافه أصابع اليد .. ومع أن الوليمة قد قام عليها وعلى إعدادها آلاف القوم... وقام بها آلاف آخرون.

وقد تكون خلاصة القول أن **«صنع التجربة»** ، حين يشارك المرء منا فيها بكل ما أوتى من قدرة هو السبيل الأمثل إلى السعادة بما ينال المرء فى هذه الحياة فى خضم الأحداث التى تأتيه ويأتيها !

❑

وقد يكون من حق الذين يفخرون بالتقدم الذى يسير مع الزمن أن يعددوا للناس أفضال العصر الحاضر على العصر الماضى ..

ولعل العصر الذى نحن فيه هو صاحب أكبر معدل فى سرعة التغير (كما يقول أهل الرياضيات فى علوم التفاضل) بالنسبة للعصر السابق عليه ..

ومع هذا فإن سعادة الأهلين فيه لا تفوق - ولا حتى تصل إلى - سعادة آبائهم!!

ومع أن السعادة شىء أكبر من أن يكون هو الشعور بمستحدثات التكنولوجيا والعلم لخدمة الحياة اليومية على سبيل المثال .. إلا أن السعادة بهذا الجانب ذاته أيضاً لم تتنام حتى الآن عما كانت عليه من قبل .

قد نكون قد أصبحنا وقد افتقدنا شيئاً ما أو أشياء كثيرة فى غمرة انشغالنا بأنفسنا وبالناس من حولنا !! وقد صرنا نسمع خبر مصرع كنيدى بعد دقيقتين من وقوعه بينما لم يسمع الأقربون بنبأ مصرع نابليون إلا بعد أيام تعدت الأسبوع ..

قد يكون هذا الشىء هو الخبرة الشخصية ..

وقد يكون أكثر من هذا هو التأمل فى الخبرة الشخصية ..

وقد ندرك الخبرة ولا ندرك الوقت للتأمل فيها حين نكون قد ذبنا بين الجماعة أو فى الجماعة ..

وقد يتاح للمرء حين يكون وحيداً فى تجربته ثم وحيداً وهو يتأملها أن يبدأ فيكتب، ثم يتدارك ما كتب ليخرج منه بالعبرة أو بالفلسفة أو بالروح أو بالإضافة إلى الروح ..

ولعلى ولم أصل بالتأكيد إلى هذه المرحلة الأخيرة أكون قد استفدت من «الوَحْدة» فى تسجيل صفحات هذا الكتاب .

❑

ومع أن هذا الكتاب لم يفلح فى أن يعرض على الناس صورة ناجحة لما يدور فى اللقاءات أو المؤتمرات الدولية على اختلاف مستوياتها .. إلا أن المؤلف يود لو شجع كتابه هذا كل مَنْ يخرج إلى العالم الكبير ليكتب لجمهورنا العريض ـ والخاص على حد سواء ـ عما يدور فى هذه المجتمعات .

وسوف تواجهنا خرافة التخصص ، يقول بعض الناس: ما للناس ولمؤتمر عن البيئة ؟.. ونحن لا نريد للناس أن يقرءوا العموميات فى كل مؤتمر من باب التسطيح ، ولكن من باب الإلمام بما يدور فى كل مجال مهما دق شأنه فى تصورنا .

ومن الغريب جداً ـ ولكنه واقع ـ أن معظم سياساتنا (سواء كان ذلك مدعاة للأسف أو مدعاة للفخر) قد نبتت بذورها فى فكر صانعيها حين كانوا يقرءون قراءة عابرة .. أو ينظرون نظرة عابرة .. ولما كنا غير متأكدين [حتى الآن] من أننا فى المستقبل سوف نعمد إلى وسيلة أخرى فى اختيار القيادات وأولى

الأمر الذين يأتون فى الغالب بعيداً عن تخصصاتهم الدقيقة (الضيقة) فلا بأس إذاً من أن تتسع قاعدة الثقافة التى تتهيأ منها الجرعات الصغيرة التى تصوغ التصورات فى العقول الباطنة لأصحاب القرارات.

❑

والحق أنى لم أكن أقصد أبداً حين كنت أكتب هذه الملاحظات أن أعطى صورة كاملة أو شبه كاملة عن تلك البلاد التى كتبت عنها ، بقدر ما كنت أقصد تسجيل أقوى انطباعاتى ، وإنى لمتأكد أن هذه ليست بالانطباعات التى تعطى المتعة ، لأنها ليست انطباعات فنان مرهف الحس أو قوى الخيال ، وإنما هى انطباعات (طالب علم) أو مهنى ليس فى نسيج حياته كثير من الفن أو الجمال أو الخيال .. بالعكس فقد تكون حياته أقرب إلى الخلو من هذه المعانى أو تلك المباهج !

ومع هذا فمن قال إن القارئ يبحث فى المقام الأول عن المتعة ، أو على الأقل أليس هناك فريق من القراء لا يضعون المتعة فى المقام الأول حين يقرءون !

... مع هذا فإن هذا الكتاب لا يدفع مؤلفه إلى أمل كبير فى رضا هذا الفريق عن سطوره التى ليست كلها بالجد الخالص.

فليكن فى هذا الكتاب من اختلاف طبعه، واضطراب حركة القلم فيه وتعدد الزوايا والرؤى، وتباعد الصور فى الزمان والمكان ما هو كفيل بإرضاء القارئ عن المؤلف وكتابه.

❑

تتناول أبواب هذا الكتاب الأربعة بعض ذكرياتى الوقتية عن بعض المواقف فى رحلتين.

أولاهما فى الهند سنة ١٩٨١ وقد ذهبت إليها بعد أن قرأت فى الوقت السابق مباشرة لرحلتى كتاب اللواء عبدالمنصف محمود عن «بلاد البقرة المقدسة» وكتاب الدكتور عبدالمنعم النمر عن «تاريخ الإسلام فى الهند» وكتاب الأستاذ الدكتور حسين فوزى «السندباد»، وقد أهدانيه قبل سفرى مباشرة متمنياً لى التوفيق، بعد ما قصّ علىّ كثيراً من الطرائف التى صادفها فى رحلته الأولى إلى الهند مما لم يسجله بالطبع فى كتابه.. وكانت الديمقراطية فى مصر يومها تسلك طريقاً تكثر فيه «المطبات الصناعية» باسم الحفاظ على أرواح الديمقراطية، فكان لا ينى يعود فى أثناء الحديث إلى انطباعاته عن الديمقراطية فى الهند (بلاد غير المسلمين) والهند الإسلامى (الباكستان).

كان الدكتور حسين فوزى يتكلم بكل ما يملك من معلومات وصلات شخصية بالناس هناك وقراءات موسوعية معاصرة، وكان يتكلم أيضاً وهو الذى عايش الهند قبل الاستقلال الباكستانى، وكان يريد أن يؤكد أن العلماء المسلمين فى الهند فى ظل الديمقراطية، وفى ظل حكم أغلبية غير مسلمة أسعد حالاً من إخوانهم فى الباكستان بسبب غياب الديمقراطية.

وعلى قدر ما كان يريد أن يؤكد هذا كان أستاذى الدكتور حسين فوزى يريد أن يتأكد من هذا، ولا أظن أن الأيام القليلة التى قضيتها هناك كانت كافية لى لأخرج بحكم فى مثل هذه القضية الصعبة.. ولكنى مع هذا لم أكن لأقاوم الانطباع الذى تسرب إلى نفسى - بحكم دراستى الطبية - من أن الحديث عن

الديمقراطيات فى بلاد لا تحتمل هزاتها العنيفة هو أشبه ما يكون بعلاج سكتة مخية [غير معروفة السبب أدت إلى شلل نصفى مفاجىء] بالهيبارين الذى يجعل الدم يميل إلى السيولة مع أن سبب هذه السكتة قد يكون نزيفاً فتضيف بعلاجك إلى المأساة أبعاداً أخرى بل بعبارة أدق تضاعف المشكلة.

وليس من شك أن الهيبارين [أو العقار الذى يسيل الدم هذا] كفيل بحل المشكلة إذا كان سببها هو الوجه الآخر للعملة وهو التخثر حين تتكون خثرة فى الوعاء الدموى فتعوق سريان الدم عن مركز المخ وهو الأمر الذى يكون من نتيجته حدوث ما حدث.

❑

دعونا إذاً نتصور المسألة فى الديمقراطية وفى الوسائل الأخرى للحكم بغير الديمقراطية على هذا الأساس، على أساس أنها وسيلة لعلاج، أو وسيلة لإصلاح، أو حتى وسيلة للحكم!

إذا أدركنا هذا الأمر برأنا من ذلك الشَرْك الأكبر الذى يقع فيه البعض بحب الديمقراطية، ثم تقديسها، ثم عبادتها آخر الأمر أى الوقوع فى الشِرْك الأكبر.

ولا أستطيع أن أقول إن الدكتور حسين فوزى كان ولو للحظة قصيرة من الذين تنزلق أقدامهم إلى هذه المصيدة، ولكنه كان بلاشك مدفوعاً بكل ما أوتى من خبرات السنين إلى الاطمئنان على خط يستقيم معه التقدم لهذا الوطن.

ومع هذا فلا أجدنى قادراً على تجاوز هذه النقطة بالذات من دون أن أشير إلى ذلك الاعتقاد الذى قد يسيطر على الذين يتابعون مقالات الأستاذ مصطفى أمين حين يجدون الرجل بعد السنوات الطوال يجعل من الديمقراطية

الكلمة السحرية التى معها تحل المشكلات، وفى غيابها تتعقد بل وتحدث النكسات..

ولست فى حاجة إلى أن أقول إن طرحى فى هذا الشأن هو الذى يبرىء الرجل الكبير من الوقوع فى هذا الشرك أو هذا الشرك، فإنى اعتقد أن الذين يدركون طبقات المعانى يفهمون بوضوح حقيقة موقف أعلامنا الوطنيين.

❑

إنما يهمنى أن أضع للقارىء بعض الملامح التى جذبتنى من صورة بلاد هى على ما أعتقد صاحبة أكثر الأنظمة الديمقراطية اكتمالا فى العالم الثالث.

ومع اعترافى بأن هذه الملامح لا تشكل لوحة بالمعنى الفنى، التركيبى أو التشكيلى، أو حتى الجمالى.. إلا أن طموحى يهيىء لى أنها سوف تترك انطباعات صادقة عن هذه البلاد بعد تجربة طويلة (نسبياً) مع الديمقراطية الهندية.

لا أحب أن أقول إن الديمقراطية هى المسئولة عما فى الهند اليوم من نجاح يتمثل فى اعتماد كبير على النفس أو على الجهة الأخرى مصاعب كثيرة فى الحياة اليومية، ولكن الذى أحب أن أسجله هو أن الهند صاحبة الديانات التى تعدت الآلاف، لم ترفع الديمقراطية بعد إلى هذه الدرجة.. أريد أن أقول إنها لم تقع بعد فى هذا الشرك، ذلك أنها لم تعبد الديمقراطية مع أن بعض طوائفها تعبد البقرة.

ولا أحب أن أقول إن الهند تعانى من الديمقراطية، فمن الصعب أن تحكم

على دواء بمضاعفاته الجانبية من دون أن تشير إلى ما كان يحدث فى غياب العلاج بهذا الدواء.

ولكن الذى أحب أن أقوله وأن أؤكد عليه هو أن قواعد اللعبة الديمقراطية فى الهند محترمة إلى حد بعيد! فإذا كان الأمر كذلك فهنيئاً لهؤلاء الناس بالدواء الذى اتخذوه علاجاً لحياتهم السياسية!!

لا أحب أن أكرر على مسامع القارئ ما حدث من سقوط أنديرا، وفوز أنديرا وانشقاق حزب المؤتمر إلى حزبين وما إلى ذلك، ولكنى أريد أن أؤكد له أن الهنود جميعاً مقتنعون بالنظام، سواء كان الديمقراطية أو غيرها.

ويبدو هذا الاقتناع واضحاً حتى فيما يتعلق بالنظام فى محطات الأتوبيس، وهو الأمر الذى يضطرهم إلى الوقوف فى صفوف قد يبلغ عددها ثلاثمائة شخص أو يزيد حتى ينال كلٌ حقه!! ولا يتعدى هذا الحق حقه فى الوقوف فى أتوبيس أكل عليه الدهر وشرب ينقله بعد نهاية يوم عمل شاق أو غير شاق إلى حيث ينام فى كوخ - أو بيت من الصفيح على أطراف العاصمة.

❑

ويريد البعض أن يؤكد أن الهنود ورثوا النظام من الاستعمار الإنجليزى.. ومع ما قد يكون فى هذا القول من تجاوز فى حق الهنود إلا أن طبائع الصفات البشرية تدافع عنهم حين تنبئنا بكل يقين أن الصفة لن تزدهر أو تترعرع ما لم يكن هناك استعداد لها.

وقد رأيت من النظام الهندى فى مصر قبل أن أزور الهند ما يؤكد أن النظام متأصل فى هؤلاء القوم.. ولقد ذهبت يوما حفلاً لجمعية الصداقة كان فى وسع

السفير الهندى بالقاهرة أن يتخلص منه، بسبب سوء الأحوال الجوية فى ذلك اليوم فإذا به قبل موعده قد أخذ مكانه!

ثم رأيت من النظام الهندى فى البلاد العربية والأوربية ما دعم اعتقادى فى نفع الديمقراطية مع هؤلاء القوم رغم كل الفقر الذى يعيشون فيه، ولم يكن هذا إلا بسبب النظام الذى يعيشون به!

ومضت الأيام وقد ازددت اقتناعاً بقول الرجل المحنك الذى كان يقول كنت فى شبابى أهتم بالحرية (أو بالديمقراطية) وصرت فى شيخوختى اهتم بالنظام، فقد اكتشفت أن النظام كفيل بكل حرية.. أو فى عبارة أخرى إن الحرية هى إحدى منتجات النظام!!

❑

قد أكون قد أطلت على القارئ فى حديث زيارتى للهند قبل أن أذكر له أن هذه الزيارة كانت لتمثيل بلدنا فى مؤتمر نظمه الاتحاد الدولى للشباب والبيئة I.Y.F بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للبيئة UNEP وفرعه الهندى للتعليم والتربية البيئية للشباب، وقد كان من حظى أن أتولى فى أعقاب هذا المؤتمر مسئولية لجنته الدولية فى مجال تلوث البيئة بالضوضاء "Noise Pollution" لمدة عام، أعددت فى خلالها بحثاً بالإنجليزية كان فحواه برنامجا عمليا لقياس هذا التلوث بواسطة شباب البيئة أنفسهم، وهو البحث الذى افتتحنا به القسم الإنجليزى فى العدد الأول من مجلة البيئة لجامعة الزقازيق (الزوكى) فى يونيو ١٩٨١، ثم إنى تقدمت للمؤتمر الدولى العشرين للصحة المهنية الذى انعقد فى هيلتون القاهرة فى سبتمبر ١٩٨١ بورقة عن مصاعب (أو مخاطر) المهنة التى

يواجهها رجال المرور العاملون فى مدينة القاهرة الكبرى، كانت بلاشك من ثمار المعلومات البيئية التى أتيح لى أن أتزود بها خلال هذا النشاط العلمى والاجتماعى الهادف فى آن واحد.

❑

أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فقد انتهزت فرصة دعوة صغيرة، ونظمت برنامجاً (حافلاً) لعدد من الزيارات، والمؤتمرات والندوات، وقد حضرت من هذه عدداً لا يستهان به، بل قد يروع مَنْ لا يعرف أمريكا أن يتصور أنه فى الإمكان لزائر عابر يقيم عشرين يوماً أن يلم بكل هذه المناشط فى مجالات البيئة، والشيخوخة والتقدم التكنولوجى، والجمعية الأمريكية لعلم النفس، وندوات عقاقير جديدة، ومكافحة إدمان الكحولات... إلخ.

❑

وفى إيطاليا حضرت ندوة لمعهد الدراسات المتقدمة لحلف الأطلنطى حول «تراجع الإصابة بتصلب الشرايين» كنت أقدر لها أن تكون أقرب إلى «طب القلب» من «علم الباثولوجى» فإذا بها أقرب إلى «علم الباثولوجى» من «طب القلب» ولكنها مع ذلك أقرب إلى قلبى من «علم الباثولوجى» على كل حال.

❑

أما زيارة الإمبراطورية البريطانية فجاءت كما تجىء الصدفة السعيدة المبالغة فى الإسعاد، إذ بينما كنت أحصل على الإذن بالسفر للخارج من الجامعة جاءنى مظروف كبير، كان عندى من الوقت ما ساعدنّى على فضه وتصفح محتوياته،

فإذا هى ندوة منظمة جداً جداً، كل شيء بالدقيقة والسنتيمتر!! ثم إذا ببصرى يقع فى سرعة على ورقة بها أسماء المشاركين.

قالت لى نفسى - أو قلت لها - لنر من أى الدول هؤلاء الناس، فإذا مصر من هذه الدول، وإذا محمد الجوادى هو الذى من مصر، وأمامه فى خانة الملاحظات أنه لم يبعث بعد بموافقته النهائية على الحضور! وأنه يمثل الجانب الذى تمثله الصحة فى البيئة Health & Environmental Impact وكان على المشاركين أن يتوجهوا إلى القنصليات البريطانية ومكاتب شركة الخطوط البريطانية فيبرزوا لهم هذه الأوراق ليحصلوا على تأشيره الدخول وعلى تذكرة الطيران.

وفى القنصلية البريطانية فى القاهرة أكرمونى غاية الإكرام، وسارعت بإرسال تلكس أنى قادم.

وفى أمريكا استصدرت التذكرة التى ذهبت بها إلى شمال بريطانيا ليسعدنى الحظ مع الذين وضعوا تقريراً عن تصوراتهم للبيئة فى الثمانينات. وقد تولت إحدى دور النشر العالمية «بلينيوم» نشر هذا التقرير.

❑

وسوف يجد القارئ فى هذه الصفحات تصويراً لكثير من الشخصيات سواء الذين تتلمذت عليهم فى هذه المؤتمرات العلمية أو الذين زاملتهم، وقد يكون من المحتمل أن تخصص الكاتب فى السير والتراجم قد طغى عليه أو تملكه، ولكن من المؤكد أننى حين فعلت ذلك كنت أعبر عن مدى التقدير والإيمان بدور البشر فى المجتمعات التى أكتب عنها، ومن الصعب أن نصف الأشجار والطرق والسيارات والأسواق والمبيعات والجو والمسافات والطبائع والغرائب... ولا نتأمل بعد هذا فى الناس.

هى أنماط من البشر إذاً تمثل بلادها بقدر، أو لا تمثلها على الإطلاق، ولكن الانطباع الذى يتولد فى الأذهان عن هذه البلاد ليس له شأن بمدى صدق هذا التمثيل..

فإذا أحسَّ القارئ هذا فليأخذ فى اعتباره أن يكون هو هو فى كل حياته سواء رآه الأجانب أم الأقربون نموذجاً لما يجب أن تكون عليه صورة المواطن ينتمى إلى بلاده، ذلك أننا لا نصنع حاضرنا فحسب، ولكننا نصنع مستقبلنا وأمانينا من حيث لا ندرى فى بعض الأحيان.

❑

وليس هذا مجالاً لأقصَّ على القارئ قصة رحلاتى حتى اليوم، فقد يكون لها موضوع آخر، وبحسبى أن أذكر أن الله سبحانه وتعالى قد كرمنى بزيارة كينيا والسعودية والكويت وألمانيا الغربية وبرلين الشرقية وفرنسا بالإضافة إلى البلاد التى يتحدث هذا الكتاب عن زياراتى لها: الهند وأمريكا وإيطاليا وبريطانيا والمكسيك.

وقد زرت ألمانيا الغربية أربع مرات كنت فى كل مرة أسعد من غيرها لا من التى قبلها فحسب، كما أتيحت لى فترات عظيمة فى عاصمة النور فى المرات الثلاث التى زرت فيها فرنسا، أما فى موطن النور ومبعث النور فقد أكرمنى الله بحج بيته الحرام وزيارة قبر رسوله، ثم زرت جامعة الرياض أسبوعا فيما بعد العيد.. واجتاحتنى هناك تلك المشاعر العلوية التى لا يعرف الإنسان كيف تأخذه وكيف تتركه.

ولقد كان أملى أن يتاح لى أن أكتب كل هذا الذى رأيت وكل ما مرَّ بى، ولا يزال هذا الأمل قائماً فقد كتبت رءوس أفكار ذلك كله فى مذكراتى.

لا أحب أن أترك الفقرة الماضية تمضى دون أن أقرر حقيقة أنى فى صحبة الزملاء سعدت بصحبتهم أيما سعادة وفى غياب الرفقة سعدت نفسى بالخلو إلى قلمها تملى عليه هذه الصفحات التى هى وليدة اللحظة والبيئة التى تتحدث عنها.

ولكنى آثرت لهذا الكتاب الذى يخرج اليوم إلى القراء أن يكون على النحو الذى وصفته فى أول هذه المقدمة مكوناً على التعاقب من تلك الانطباعات التى كنت أخلو فيها إلى نفسى فيسجلها لها قلمى حين كنت وحيداً فى تلك الأسفار.

❑

وإذاً فلا أدرى أيهما كان فيه حظ القارئ سفرى مع الرفقة الكريمة، أم سفر نفسى مع قلمها.. لعل هذا هو السؤال الذى أطمع فى إجابة عليه من القارئ الكريم حين يخلو هو الآخر إلى نفسه بعد أن يقرأ ما شاء الله له أن يقرأ من هذا الكتاب.

يناير ١٩٨٥ | محمد الجوادى



1

في بلاد الهند

أول ما استقبلنا من الهند بعد مغادرة باب الطائرة كان هذه الأسطوانة (أو الأنبوبة) التى تنقلك من الطائرة إلى مكاتب المطار وقاعاته مباشرة، شىء يدل على التقدم الذى لم يصل بعد إلى بعض المطارات!!، على أن السيولة التى أتاحتها هذه الإسطوانة فى حركة القادمين قد توقفت بفعل بطء الإجراءات التى يمر بها الراكبون.

بعد فحص تأشيره الدخول كان علينا أن نمر بالقسم الصحى، هناك وجدت اثنين من الأخوة العرب يتطلعان إلىّ فى شوق شديد، شوق الحاجة، كنت قد علمت بأميّتهما حين طلبا منى ونحن فى الطائرة أن أكتب لهما كارت الدخول، ها هما الآن فى حاجة إلى مَنْ يترجم لهما، وليس فى الأمر شىء يصُعب على الفهم، فالمطلوب هو تلك البطاقة الصفراء التى تدل على تطعيم الفرد ضد العدوى أو ما يحل محلها، وفى وسع كل إنسان أن يفهم ما هو المطلوب منه فى هذا المحل عندما يرى مَنْ أمامه ومَنْ خلفه يُبرزون هذه البطاقة للسلطات. إنما كان الأخوة العرب يريدون شيئاً من الاعتذار لأولى الأمر، ولم أكن بحاجة إلى أن أبدأ هذا «الفصال»، فقد تكاثر عدد هؤلاء القادمين

بدون هذه البطاقة، وأحسست من مناقشتى مع المساعدين الصحيين أنهم سيتركونهم لكثرتهم، فطمأنت الأخوة العرب وانصرفت.

❑

كان مَنْ سبقونى إلى إتمام الإجراءات لا يزالون فى انتظار حقائبهم، وإذ لم تكن لى حقيبة غير التى فى يدى، فقد توجهت مباشرة إلى الصالة الخضراء للخروج، وفى شىء من الثقة بالنفس قدمت نفسى إلى الرجل المسئول، وأخبرته أنه ليس معى إلا هذه السمسونيت، وأنى أريد الانطلاق إلى مقر المؤتمر، ورحب الرجل بى، وسألنى على الطريقة التى تكون بين الشرفاء حين يأخذون على بعضهم العهود: هل فى الشنطة أو معك شىء من الممنوعات؟ (وهى كثيرة جداً هنا)، فقلت له: لا... وانصرفت.

وما إن صرت على باب المطار حتى بانت لى أشباح الفقر، عشرات عديدة من الهنود يقفون بلا عمل، هم مستعدون لحمل الحقائب، أو لتغيير النقود، أو لإرشادك إلى التاكسى، مع أن الشمس فى السماء، والعداد بارز منه، أو للتسول، أو لأشياء أخرى!!.

ووجدت أمامى فى الناحية الأخرى من الشارع الذى يمر أمام باب المطار، حجرةً وحيدةً كان النصف الأعلى من جدرانها من الزجاج، فحدست أنها للاستعلامات أو الأمن، لاشك أنها تناسبنى للسؤال.

ألقيت بنفسى على أحد الكراسىّ فى الحجرة وسألتهم أن يدلونى على أسرع (لا أرخص، ولا أريح، ولا أجمل) السبل للوصول إلى (كاراد)، كان هناك لحسن الحظ رجل متمكن أراد أن يشرح لى شفاهة، فطلبت إليه أن يكتب فى ورقة حتى استعيد الأسماء بدقة.

ولم يكن فى المكتب ورق لذلك الغرض ولا لشبه ذلك الغرض، إنما كان عندهم

ورق استمارات رديء طُبع وجهه، وكتبنا على ظهره، مظهر من مظاهر الفقر جديد فى بلد يصنع الفقر، ولكنه فقر مظاهر لا فقر جواهر على كل حال.

كان الرجل متمكناً، وكانت عقليته منظمة فرتب السبل حتى إذا جاء عند البدائل فرع لها التفريعات من الأصول.

❑

بدأت أحاول ركوب الأتوبيس إلى المطار القومى لأننا الآن لا نزال فى المطار الدولى!! فيفوتنى الأتوبيس غير مرة لأنى لا أدرك أنه الأتوبيس، وكيف بك تجد ميكروباصات ليس لها ما يميّزها ولا ما يوحدها، ولا ما يعرِّفها على أنها وسيلة لهذا الغرض إلا أصابع هؤلاء الواقفين بلا عمل إلا أن يرشدوا إلى هذه الأتوبيسات، ولم يكونوا واحدا ولا اثنين بل سبعة على ما أظن.

ركبت الأتوبيس إلى المطار القومى فمضى بى مسافات طويلة طويلة، كان شبح الفقر يزداد كلما مضينا بالأتوبيس، بل من ساعة ما ركبته، فهذا مواطن هندى جاء بالطائرة من بلد آخر لا يحمل معه سوى حقيبة من ذات الخمس كيلوات من مسحوق اللبن (نيدو).

يا الله!! لم يتح لى شعورى أن أسأل الرجل لم أتى بهذه؟ وكيف؟، وما ثمنها؟، وما الفرق بين ثمنها داخل الهند وخارجها، هذا إذا كانوا يسمحون بدخولها.

وهذا راكب ثان كانت معه حمولات ذات حجم كبير ووزن خفيف، فراش الرجل، وكان الفراش متواضعاً، لو كان لأوربى لاستغنى عنه ووضعه فى الشارع قبل يومنا هذا بعشر سنوات.

ولم يكن فراش الرجل وحده هو الذى قضى عمره الافتراضى منذ سنوات عشر، وإنما كان هذا الأتوبيس، صوت عال واهتزازات مستمرة، كراسى بلا تنجيد، شبابيك بلا زجاج، أرض لا تعرف لها وجها، وباب ليس له أصل من فصل.

لكن ما يعنينى بالإشارة هنا هو أن أنتبه إلى هذه الظاهرة الملفتة فى كل أتوبيسات الهند حين تجدها جميعاً وقد وضع فيها بين السائق وبين الركاب حاجز تام بحيث لا يدخل من الباب الأمامى إلا السائق ولا من الباب الخلفى إلا الركاب، وقد يكون بين السائق والركاب نافذة فى هذا الحاجز أو شبه نافذة.

هل يكون فى هذا التقليد نوع من الحل الأمثل لإراحة السائق من هذا الزحام الذى يضغط عليه فى ساعات الذروة - وفى غير ساعات الذروة، فيكون من الخطر تكالب الركاب عليه وعلى عجلة القيادة التى تتحمل بالكاد اهتزازات الأتوبيسات... مع أنها فى واقع الأمر هى التى تحركها هكذا مهتزة؟

❑

وفى المطار القومى بحثت عن الأتوبيس الذى يذهب إلى وسط المدينة، فعلمت فى النهاية أنه يأتى على رؤوس الساعات، وكانت ساعتى العاشرة وخمس دقائق، ولم تكن أمامى فرصة للانتظار لساعة كاملة يضاف إليها ما يتأتى من بطء الأتوبيس أو احتمال عدم مجيئه، هذا إذا ما أهملنا الأهم فى ديناميات الزمن باقترابنا من ساعات الذروة مع مرور الوقت.

بحثت عن التاكسى فتكالبوا علّى، أكثر من عشرة سائقين، كلهم يدعوننى للركوب وأنا أحاول الاتفاق على أجره، فلا يقبلون بأقل من خمسين روبية فقلت: توكلت على الله.

عداد التاكسى يعمل بسرعة كبيرة، وكنت أظنه يعد الروبيات فتبين لى أنه يعد بأعشارها، غير أنى بعد ما فهمت ذلك، وجدت أنه سيكون مظلوما بهذه القيمة! وما زلت فى هذه الحيرة بين الروبيات وأعشارها حتى إذا ما وصلنا إلى مقصدى أخرج السائق تسعيرة توضح العلاقة بين قراءة العداد، وبين الأجر المطلوب، فوجدتها تقريباً

ثلاثة أضعاف ما يسجل العداد! وسألت فقالوا إن العدادات مضبوطة على تسعيره قديمة، وتزيد التسعيرة عاما بعد عام، فيجعلون لها هذه الجداول، لأنه من الصعب عليهم إعادة ضبط العدادات على المعايرة Calibration الجديدة.

بالله عليهم (لا عليك) أين تكنولوجيا هؤلاء العلماء فى أمر بسيط كهذا!!

لا تسألنى عن هذه الأكواخ المتراصة التى مضينا بينها فى شوارع بومباى الكبيرة ولا عن الشوارع الضيقة القذرة، ولا عن هذه التاكسيات والمركبات التى ليس بينها جميعا سيارة واحدة تزهو بأنها ما زالت وليدة (أو صبية أو شابة)... أغلب ظنى تكون أحدث هذه السيارات من إنتاج عشرين سنة مضت تقريبا، غير أن هموم الزمان والأعباء فى الهند، قد ذهبت بشبابها، وأتت لها بالشيخوخة قبل الأوان.

❑

الطريف فى شوارع الهند أن عجلة القيادة فى بعض السيارات على اليمين، وفى البعض الآخر على الشمال، ويكاد هذان البعضان أن يكونا متقاربين ٦٠ ٪ و ٤٠ ٪ أو ٦٥ ٪ و ٣٥ ٪ وهذا هو وجه المشكلة، فالإنسان يستطيع أن يفهم أن تكون السيارات كلها من حيث عجلة القيادة إلى اليمن أو إلى الشمال على حسب الطريق، والإنسان يستطيع أن يفهم تجاوزاً معقولاً فى هذه القاعدة ١ ٪ أو ٢ ٪ أو حتى ٥ ٪.. أما أن تصير الأمور إلى ما صارت عليه فى الهند من هذه النسبة التى تجعل النصف هكذا والنصف هكذا فشىء غريب، ولكنك سوف تعتاد عليه فى الهند، وسوف تجد أنه أمر طبيعى فى بلد فيه ألف ديانة وخمسون لغة و.. قومية... إلخ.

ولو كان بوسعهم إذاً أن يجدوا لعجلة القيادة مكاناً آخر لفعلوا! وسوف تحمد الله أنهم لم يجعلوها فى الوسط مثلا، وهو شىء طريف قد يأتى يومه!!

ولو كان فى الإمكان أن يكون لعجلة القيادة مكان آخر غير اليمين أو اليسار،

لوجدت من هذا النوع فى الهند، ما يتيح لك أن تشهد بتعدد النظائر إلى حد كبير يليق ببلاد الألف ديانة.

إنما الطريف فى هذا الأمر أن تجلس مضطجعاً على نحوٍ ما فى كرسيك الخلفى أو الأمامى فتجد أنك تناوش الراكب المناظر لك (كذا)، أو أن السائق يحتك بالسائق الموازى له فى الطريق.

❑

كل هذا من مظاهر الفقر لم يذهب بنفسى إلى الدرجة القصوى من الاشمئزاز التى تجلت عندما لاحظت ظاهرة الحفاء.

ظاهرة رهيبة تذهب عن الإنسان بإنسانيته، وآدميته، وهم لا يقفون حفايا، وإنما يمشون ويسيرون وليس الحفاة بالقلة، ولكنهم كثرة كاثرة، وراعنى أكثر أن أستقبل هذا المنظر فى طريقى من المطار إلى واحدة من أعظم وأكبر مدن العالم، ميناء الهند، ومدينتها الثانية..... إلخ.

ولا يزال التاكسى ينتقل بى إلى درجات أحط من سوء العيش، ويتحول الحفاء إلى شبه عراء، كل هذا فى ضواحى (لاحظ ما تعنى كلمة الضواحى من الهدوء والجمال والرقى مع البقاء على مزايا المدينة) بومباى.

وأحياناً تأتى بنا السيارة على كورنيش ثم لا تلبث أن تدخل منه إلى ما ليس بكورنيش، والإنسان يستمتع بالسير على الكورنيش، ولكنه فى بومباى يستاء فى بعض الأحيان إذ تزكم أنفه رائحة كريهة جداً آتية من بعض الخلجان (كأنما انتقل خليج نابولى إلى هنا) فلا يكون فى وسع المار بسيارته على الكورنيش إلا أن يغلق أنفه، ويتنفس من فمه.

على أنك لا تزال تضيف إلى رصيد الفقر ما ترى من مظاهر: فهذا منظر يتكرر، ويتكرر جهاراً نهاراً لمختلف نوعيات البشر، قد نزلوا إلى الماء يستحمون.

ثم تمل المناظر المتكررة فتتأمل فى العربات، فتجد التاكسيات أمامك، وقد شحنت حقيبتها بأكثر مما تتحمل، حتى أصبح الباب لا يغلق عليها وإنما يربط برباط من الحبال المفتولة، وتجد من هذا المنظر الكثير.

❑

حين وصلت إلى محطة كاراد أو كاراد المحطة بعد عشر ساعات من السفر الشاق، أخذت بمبدأ «فى التأنى السلامة»، وذهبت إلى ناظر المحطة فقدمتُ له نفسى، وطلبت إليه أن يتصل تليفونياً باللجنة المنظمة للمؤتمر، واتصل الرجل بالتليفون فأعطوه رقماً آخر يطلبه، واتصل بالرقم الآخر فأعطوه رقماً ثالثاً، واتصل بالرقم الثالث فأعطوه رقماً جاء معه الفرج، وكان رقم الفندق الذى يقيم فيه الأعضاء، وجاءنى أحدهم على التليفون، وطلبت إليهم أن يبعثوا إلّى بمن يأخذنى، وانتظرت فى حجرة مخصصة للانتظار، أو فلنقل إنها ما يناظر استراحات الدرجة الأولى فى المحطات المصرية الكبرى، وكانت بها مرآة، فأصلحت من شأن نفسى، وربطت رباط العنق، وانتظرت حتى جاءنى شاب له ملامحنا العربية، وسرعان ما علمت أنه من إيران، وسرّ هو الآخر عندما وجد متاعى يقتصر على الحقيبة السمسونيت، وكان سر سروره أنه أتى بموتوسيكل من النوع الصغير ليس فيه محل لأى شيء غير الحقيبة التى (جلست) بيننا على الكرسى الوحيد.

وعبرنا المحطة، فلم أجد تاكسيات - على الرغم من أنى وجدت فى كاراد، فيما بعد، تاكسيات ستوصف بعد قليل، لم يكن هناك تاكسى واحد ينتظر القادمين إلى هذه المحطة، ولكنهما حنطوران كانا ينتظران الفرج.

وانطلقنا من كاراد «المحطة» إلى كاراد المدينة فقد كانت المحطة بعيدة إلى حد ما عن المدينة على نحو ما يحدث أحياناً فى محطة السكة الحديد التى تسير فى خطوط شبه مستقيمة، ولا تسير فى خطوط كتلك التى قامت عليها المجتمعات العمرانية (القرى أو المدن) من قبل تبعاً لظروف أخرى.

واستقصيت فى الطريق من الأخ الإيرانى ما أردت أن أعلمه عن كاراد وكليتها وجامعتها، ونسب أتباع الديانات فيها... إلخ.

وحين وصلنا إلى الفندق جاءنى الرئيس والزملاء مرحبين، وجاءنى مندوبو الدول الأخرى، وكانوا على وشك الاجتماع فلم أشأ أن أسبب اضطراباً فى موعد اجتماعهم، فدخلت معهم الاجتماع وقدمت نفسى، ولم ألبث عشر دقائق حتى جاءنى الرئيس ودعانى إلى تناول الشاى والاستراحة إذا أردت، فاكتفيت باستبدال ملابس مناسبة لجو العمل تاركاً بملابسى الرسمية التى كنت أرتديها، وعدت إلى الاجتماع.

ثم خرجنا لتناول العشاء وأخبرنى الزملاء فى الطريق أن أهل هذه المنطقة نباتيون ومن ثم فلن نجد فى هذا المطعم الذى نتوجه إليه إلا طعام النباتيين.

❑

منذ هذه اللحظة بدأت معاناتى مع الطعام الهندى، ليس فى استطاعتى أن أصف هذا الطعام، لأنى لم أتذوقه، ولا حللته، ولا فحصته، ولا تمكنت من التأمل فيه.

إنما يكفينى أن أقرر أن واحدة من الزميلات الأوربيات ألحت علّى فى أن أتذوق أحد الأصناف، وقالت إنها تأكله، فكيف بى لا أستسيغه؟، كانت تقصد أن الهند أقرب إلى مصر منها إلى أوربا، وفاتها أن الأمر فى الاستساغة ليس بقرب المسافة وإنما هو ذوق شخصى.

ليس من حقى أن أطيل على القارئ فى وصف ذوق قد يكون غريباً أو شاذاً، ولكنى أكتفى بأن أذكر أنى فى أغلب الأحيان كنت أقتصر على تناول الخبز، فإذا

مللتُ من تناول الخبز وحده عصرت عليه الليمون، وفى البعض الآخر كنت آكل السلاطة فحسب.

وكان الهنود سريعى البديهة فأدركوا معاناتى وكانوا يبذلون كل جهدهم للتخفيف منها، ولكن دون جدوى.

وفى جلسة الصباح التالى بدأ رئيس المؤتمر حديثه، فأعلن سعادته لحضورى وترحيبه بى، ودعانى إلى إلقاء كلمتى، فاعتذرت للأعضاء عن التأخير، وأوجزت فى ذكر السبب، وأبديت السعادة للقاء بهم بعد الرحلة الشاقة، والأمل فى اللقاء بهم فى القاهرة فى الدورة الأفريقية القادمة، وأبلغتهم تحيات رئيس وأعضاء المكتب العربى للشباب والبيئة بالقاهرة، وتحدثنا فى شئ من الإيجاز عن النشاط البيئى فى مصر، والمشكلات التى تواجه البيئة، ودور الشباب فى حلها.

❑

واشتركت فى «مجموعة عمل» انبثقت عن المؤتمر لإعداد برنامج عملى للدراسات السكانية وتلوث البيئة واجتمعنا فى المساء اجتماعاً محدوداً، واختلفت الآراء فى كثير من النقاط، وكنت أدلى بالرأى فى هذه المسائل فيلاقى الاستحسان، وكنت سعيداً أشد السعادة بهذا، وكان أعظم ما لقى استحسان الأعضاء هو رأيى المتواضع جداً عندما اختلف الطبيب الهندى الباحث فى الإشعاع مع زميلتنا البولندية حول وسيلة الإعلام والدعاية لمشكلة معينة، وكان يرى أن الملصقات هى خير هذه الوسائل، وكان قد أعد بالفعل مجموعة من هذه الملصقات، عرض لها ماكيتات فيما بعد ذلك، بينما كانت ترى أن الشرائح وسيلة أكثر فاعلية فى مثل هذه الموضوعات، ولم أكن بحاجة إلى ذكاء خارق لأقترح عليهم وسيلة أنسب وأكثر فاعلية وأبسط مؤنة وأبعد أثراً، وهى إعداد أفلام تسجيلية قصيرة تعرض قبل عروض السينما.

وعرضت الفكرة بشيء من التفصيل من ناحية الإعداد والتمويل... إلخ، وطلب رئيس الجلسة من الأعضاء التصفيق للفكرة والتوصية بها لمناسبتها للدول على اختلاف إمكاناتها!.

ودعيت لأكون مقرر الجلسة الثانية من جلسات يوم السبت، وكان عليّ قبلها أن ألقى تعليقاً على بحث الزميل البلجيكى فى الجلسة الأولى، وما إن انتهيت منه حتى ذهبت لقضاء مصلحة ملحة حتى أكون مرتاح البال طيلة الجلسة التى سأجلس فيها على المنصة الرئيسية، وعدت فوجدت رئيس المؤتمر وهو ينطق بالمقطع الأخير من اسمى ليدعونى لمشاركته المنصة. والأعضاء الذين يعرفون أننى حامل هذا اللقب يبتسمون لدخولى فى نفس اللحظة، وكأنى منضبط إلى هذه الدرجة.

وكانت الجلسة مخصصة لأربعة بحوث، وكنت حريصًا على ألا تأخذ أية ورقة بحث أكثر من الوقت المحدد لها، وألا تأخذ البحوث الأولى بالذات أكثر من الوقت المحدد لكل بحث بحيث لا تطغى على البحوث التالية، وكنت أنبه الرئيس قبل انتهاء التوقيت بدقيقة حتى ينبه المتحدث إلى انتهاء الوقت المحدد له بواسطة الجرس، وكنت حريصاً على أن أبكر فى تنبيه الرئيس كسبًا للوقت الذى يضيع دائماً نتيجة اصطناع كل رئيس للصبر من منطق الجمع بين الرئاسة والكياسة!.

وحرصت على أن يكون تسجيلى لوقائع الجلسة على نحو منظم يريح السكرتارية الفنية، وكم كانت سعادتى عندما سلمت محضر الجلسة إلى السكرتير العام للمؤتمر فأخذ فى الغد يثنى عليه ثناءً جميلاً!

غير أنى حرصت على اتخاذ جانب الحيطة فى نقل الآراء والملاحظات فكنت أترك الفرصة للزملاء لكى يقرءوا أسئلتهم وتعليقاتهم، ولكن بعد أن يقدموها مكتوبة ما أمكنهم ذلك!. ويبدو أنى نجحت فى هذا إلى حد بعيد.

وطلب سكرتير المؤتمر إلىّ قبل النهاية بخمس دقائق أن أنبه الأعضاء إلى أن اليوم هو آخر فرصة يستطيع فيها أن يحجز لهم أماكن العودة بالأتوبيسات أو القطار، فلم أشأ أن أعلن التنبيه بنفسى. لأنى أعرف بالطبع طبيعة هذه التنبيهات، وما يستتبعها من أسئلة واستفهامات، وهكذا انتظرت حتى إذا انتهى الرئيس من شكر آخر المتحدثين طلبت منه الميكرفون وأعلنت أن السكرتير العام يريد أن ينبه إلى شيء.

❑

لم يكن أعظم فنادق هذه المدينة التى تضم عدداً من كليات جامعة معترف بها يتميز على أى بيت ريفى فى مصر بشىء كثير. إنما يعنينى أن أشير إلى اعتنائهم بمدخله وهو ما يسمى بالاستقبال، فقد كان آية من آيات الفن الرفيع الهادىء.

وقد اختيرت لى الحجرة المجاورة للمدخل مباشرة، ولم تكن لى بمفردى وإنما كانت مشاركة مع المندوبين البنجالاديشي والموريشسى، على حين كان هناك عنبر كبير فى الطابق الثانى يسع ١٥ سريراً، وكنا نعدل من وضع الأسرة فى هذا العنبر بحيث يتسع هذا العنبر لما تريد من اجتماعات العمل واجتماعات الصياغة، أو لإجراء المناقشات المتعلقة بنقطة واحدة... كما اتسع هذا العنبر للحفل «العائلى» الذى أقامه المشاركون تكريما للجنة المنظمة.

لابد لى من الإشارة، بعد هذا، إلى أن «الحجرة» لم تكن خالصة لثلاثتنا إنما كان يشاركنا فيها - عملاً لا إقامة - التايبست، ولم يكن عدد الكلمات التى يكتبها فى اليوم أو اليومين يتعدى مائة كلمة، وإنما هى «أرزاق» من ناحية أن الرجل يعمل فى كلية العلوم، فلا بأس من أن يشارك فى مثل هذه الأجور الإضافية التى تأتى فى مثل هذه المؤتمرات، وهى قبل ذلك مسألة رفاهية من رفاهيات الفقر.

كانت حجرات الفندق العظيم على قدر عظيم من التواضع، وكان الماء الساخن

يأتى فى أوقات معينة، ولم يكن من اليسير خلطه بالماء البارد قبل نزوله من الصنبور، إنما كان عليك إذا أردت حماماً أن تخلط الماء فى إناء قد وضع خصيصاً لذلك فى الحمام على الطريقة الهندية.

وقد كان الفندق يقدم لنا بمجرد استيقاظنا كوباً من الشاى، وكان الرجل المختص بهذا البروتوكول يتحين الفرصة لتقديم الشاى، وكان يدركنى قبل أن أرفع رأسى عن الوسادة كأنما كان ينتظر استيقاظى دقيقة وراء أخرى!!

وكانت إلى جوار الفندق ورشة لشق الخشب وتقطيعه ومسحه وما إلى ذلك، وكانت تسبب ضوضاء شديدة، ذهب بها عناء التعب الذى كنا نلاقيه فلا يدع لنا فرصة للإدراك (بل للتأمل) هل هناك ضوضاء أم لا؟؟.

وكانت هناك أشجار كثيرة مقطعة قد وضعت إلى جوار الفندق وأمامه، وقد كانت هذه الأشجار مجهزة للدخول إلى حيث تشق وتُقطّع فى هذه الماكينات، وقد ذهب أصحابنا ذات يوم إلى هذه الأشجار فجلسوا عليها متقابلين! وأخذوا يغنون ويغنون ودعونى للغناء فوعدتهم أن ألبى الدعوة بعد العشاء وعدت بعد أن تجمعوا، فما رأونى حتى قالوا إن دورى قد جاء، فاعتذرت بأنى أحتاج بعض الوقت للتذكر، ولم يمانعوا فقد كنت فى أيديهم، والوقت معهم إلى آخر الليل.

وفتح الله علّى بنشيدنا القومى «بلادى بلادى بلادى»، كوبليه واحد فقط هو الذى استطعت أن أتذكره على نحو يكون النغم فيه معقولا، وأصلحت من شأن صوتى بخفضه، وذهبت فى الغناء على نحو هادىء ممتد، وأكثر ما كانت سعادتى إذ وجدتهم قد سُروا على نحو ما للأغنية التى زعمت أنى أغنيها.

وسألونى عن المعانى، وكانت فرصتى، ترجمة الكلمات، وشرحت المعانى، وسردت قصة الشعر، وحدثتهم عن سيد درويش، وعن التغيرات التى لحقت بالأغنية

ويلحنها من عصر إلى عصر، وهم فى كل ذلك منصتون لم يسأموا.. واستمعت بعدها إلى أغنية هندية ثم سألتهم أن يأذنوا لى بالذهاب للنوم فأذنوا لى.

❑

كان هذا الزميل السيلانى صغير الحجم، حديث السن، ومع هذا كانت له أهميته عند التصويت فهو يمثل دولة، ولم يكن له دور كبير فى النقاش ولا القرارات، وإنما كان يتعلم، وكنت أقدر هذا فيه، لأنى كنت أظن أنى كنت أؤدى دوره فى مراحل سابقة، وبوسعى أن أقدر هذا الصمت الذى يلاحظ، وهذه العين التى ترى الحركات، والأذن التى تسمع السكنات، ومن وراء كل هذا هذا العقل الواعى الذى يقدر له أن يسمع فى مراحل متقدمة وأن يدرك أنه لابد له من التصرف الواعى فى يوم من الأيام.

كنا ذات صباح نركب تاكسى إلى نادى الطلبة، وقد ركبه خمسة بالإضافة إلى السائق، وكان السيلانى واقفاً على بعد، فدعوناه ليكون الرابع فى الكرسى الخلفى، وقلنا للسائق إنه مندوب صغير، وأضاف أحد الركاب لدولة صغيرة، ولم يكن بد بعد هذا من قدر من المجاملة، فقلت: سيكون كبيراً، وتكون كبيرة.

أما زميلنا الذى جاء من موريشيوس فقد أثار إعجابى به، حبه لوطنه، الذى برز حين كنا فى حوار سألنى فيه أحدهم عن مناخ مصر، فأجبت فى نعرة وطنية تتخفى تحت أسلوب علمى دقيق، بأن مناخ مصر خير مناخات العالم، عندئذ أسرع الموريشوسى ليقول: أنا أخالفك فإن مناخ موريشوس هو ذاك المناخ الأحسن فى العالم.

وفى شىء من براعة الجدال العلمى استطعت أن أقنع المستمعين - بمن فيهم بل وأولهم هذا الأخ الموريشوسى - بأن مناخ مصر خير وأولى.

وأنا أحكى هذا لأبين أن عند كل واحد من خلق الله ما يستطيع أن يفخر به

ويزدهى به على غيره، على حين أنه أيضاً يستطيع فى سهولة أن يشكو من كثير مما يعانيه فى نفسه ووطنه.

وكان هذا الزميل مشوقاً للحضور إلى القاهرة، وقد سألنى فى لطف بالغ هل أقبل أن أحمل رسالة منه تيسر له إجراءات حضوره فيما بعد، فأجبته بأن هذا شرف لى. وقد كان هذا الزميل متمكناً من الإنجليزية إلى درجة تستحق الاحترام، وكان ثالث ثلاثة فى حجرتنا التى ضمت كذلك المندوب البنجلاديشى، وقد خرجنا لجولة ذات ليلة فى كاراد، فأحس بتعب فى معدته، وبمعاناة للحموضة، وأخذنا نمزح فى أمر تعبه وحموضته، وهو يطلب إلى أن أكشف عليه!، وأن أضع يدى على بطنه ممثلاً حركات الأطباء، على حد تعبيره ولم يكن الأمر يحتاج إلى هذا التمثيل، وكان يعرف ذلك بالقدر الذى أعرفه، ولكنه مزاح.

وقد جاء فى ذات صباح وعلى صدره شارة طريفة كُتب عليها: «أنقذ جلدى.. تنقذ حياتى»، وكان على الجزء العلوى من ذراعه آثار مرض جلدى قد ذهب بالطبع، فسألته فى تلطف عن هذه الشارة دون أن أبدى فهما لارتباطها بما رأيت فى ذراعه، وكان من حسن الحظ أن أجابنى بأن زميلتنا الدانمركية هى التى منحته هذه الشارة التى صدرت عن جماعة تنتمى إليها!.

❑

لم تكن بحوث المؤتمر، إنشائية بالطبع، ولم تكن أكاديمية من ذلك النوع رفيع المستوى الذى قد يضيف جديداً إلى العلم ذاته، ولكنها كانت تجمع بنسب متقاربة بين الطبيعتين. وكثيراً ما غلب عليها طابع الإنشاء، ولكنه الإنشاء المرتب الذى يعبر عن التأثيرات المتبادلة بين العوامل البيئية، والعلمية المختلفة.

وفى كل هذا يهمنى أن أصف ذلك الاهتمام الشديد من جانب الباحثين ببحوثهم، ويكفينى أن أذكر أنه ما من باحث منهم انتهى من قراءة بحثه قبل الوقت المحدد له، وقد لا تكون هذه ميزة، وقد لا تعبر عن الاهتمام، لأن الاهتمام الطبيعى بالبحث يأتى من ضبط وقت ملخصه بحيث لا يزيد عن الوقت المفروض فيضطر الباحث عندئذ للتخلى عن الفقرة أو الفقرتين أو الفقرات الثلاث الأخيرة منه، ولكنه على كل حال اهتمام غير ناضج، سينضج حتماً مع التجربة، ولا تنس أن هذا المؤتمر قد يكون المؤتمر الأول لكثير من هؤلاء.

❑

ذكرنى هذا بما حدث معى من قبل فى ندوة فى القاهرة، وكنت بحكم ترتيبى أول الذين يتحدثون، وأعددت كلمتى على أن يتبقى لى من الوقت المقرر دقيقة أو أكثر، على حين ظن كل من جاء بعدى أنه من الخير لهم أن يطيلوا أضعاف الوقت، حتى أن بعضهم قد جعلها تستغرق أكثر من نصف الساعة، وكان رئيس الجلسة ومساعدوه لا يفتأون ينبهونهم إلى أن يختصروا، ويضربوا لهم المثل بى، فى كل مرة، حتى صرت إلى حالة من الملل، خوفاً من الكره الذى سيصبه علىّ زملائى لهذا الخلق الذى لم يكن عندهم استعداد له!!

هذا فى القاهرة أما فى كاراد فقد أدرك الزملاء يوماً بعد يوم أن عليهم أن يعيدوا حساباتهم وقد رأيت أحدهم وهو يختصر من كل صفحة فقرة أو فقرتين يضع عليها حرف × حتى يستوعبها حرف ×، ولا يستوعبها حديثه.

❑

وكان البعض يستعين بالسبورة، ولعل أبرز هؤلاء أخونا البنجلاديشى، والسبب فى ذلك واضح، فقد كان مدرساً فى المدرسة الثانوية.

وكـان البعض يسـتعين بالشرائح، وكانت هذه تـأخذ وقـتا طويلاً، فلم يكن جـهـاز العرض من ذلك النوع الذى يسمح بتعبئة الشرائح مرة واحدة وإنما كان الأمر يحتاج إلى وضع الشـرائح واحـدة بعـد أخـرى ولم تكن الشرائح مـحـددة الوجـه والظهـر، ولا الأعلى والأسفل على النحو الذى يسمح للأخ الذى يدير جهاز العرض بأن يضعها فى وضعها الصحيح، وإنما كان يضع الشريحة فتأتى فى أحيان قليلة فى وضعها الصحيح بينمـا تأتى فى أحـيان كـثـيـرة مـقلوبة: أعلاها أسـفلهـا، أو يمينهـا يسارهـا، أو وجـهـهـا ظهرها، ثم يعيد الترتيب فقد يصل إلى الصواب من المرة الأولى وقد يصل إليـه من الثانيـة أو الثالثة وفى مثل هذه الأجهزة فإنك تحتاج لكى تعيد حساباتك أن تعيد جزء الجهاز الذى توضـع فيه الشريحة إلى وضعه الذى كان عليه من قبل، وعندئذ تظهر للحاضرين الشريحة السابقة مرة أخرى، وهكذا...

هذا عن الجهاز أما مكبر الصوت فكانت به تكنولوجيا هندية متقدمة بعض الشىء، كان له مشبك يعلق به فى جيب قميص المتحدث فيتيح للمتحدث أن يستعمل يديه فى الشرح أو الكتابة على السبورة أو الإشارة إلى الشاشة التى تعرض الشرائح ومع هذا فان مكبر الصوت لا يزال متصلاً بالسلك الكهربائى يتحرك به، ولكنه يستعين بالمشبك على أن يحرر للمتكلم يده.

وكانت السبورة هى الأخرى تعبيراً عن تكنولوجيا بسيطة فقد قسمت إلى نصفين: نصف منـهـمـا كـسـبوراتنا التى تـعرفهـا، والنصف الاخر قد قسم بخطوط حـمـراء إلى مربعات على النحو الذى نعرفه فى كراسات المربعات.

وكانت منصة الخطابة ثابتة الحجم بالطبع، وكـان الذين يتمتعون بالطول المناسب أو القصر المناسب يتكيفون معها ببعض الجهد، أما مندوب بلجيكا وكان طويلاً إلى الحد الذى يلمس فيه برأسه سقف قاعة المطعم الذى كنا نتناول فيه عشاءنا، فقد عانى من هذه المشكلة، فقام إليه الرئيس وناوله ميكروفون الرئاسة ليلقى منه كلمته.

كنا نتناول الإفطار والغداء فى مطعم كلية العلوم، وخير ما يوصف به هو أنه متواضع جداً.

أما العشاء فكنا نتناوله فى مطعم بسيط، ولكنه فيما يبدو أهم وأرقى مطعم فى هذه المدينة الصغيرة، وكنا فى كل يوم ضيوفاً على هيئة من هيئات المدينة (الرسمية أو الشعبية) مع أننا فى نفس المطعم، وكان الرئيس يوحى إلى أحدنا كل ليلة أن يقوم ليقول إننا ضيوف على الهيئة الفلانية ونحن نحييهم باسم المؤتمر والضيوف، فنصفق لرئيسهم أو مندوبهم الذى يحضر معنا العشاء.

وذات ليلة أوشكنا على النهاية ولم يقم أحد ليصرح باسم مضيفنا. وسأل أحد الزملاء أليس هناك تصفيق الليلة؟، ورد آخر مازحاً، إن الأمر ليس بهذه الأهمية، فداعبه ثالث بقوله إن عليه أن يختار بين التصفيق والدفع!، وعندئذ أدرك صاحبنا أهمية التصفيق ثم مضى بعض الوقت وقام الأخ البلجيكى فطلب الانتباه ثم قال إننا ضيوف اليوم على «الروتارى»، وبدلاً من أن يقول فلنحييهم صفق بيديه، وعندئذ صفقنا وسط ضجيجنا بالضحك من ظرف الزميل البلجيكى، ظرفٌ صريح لم يكن من الصعب على مندوب الروتارى أن يفهمه على وجهه الصحيح.

❑

أعود لأحدثك عن مندوب بنجالاديش، وقد أتاح له الحظ أن يعمل بالتدريس فى المرحلة الثانوية بعد تخرجه منذ عام. وكان من ذلك النوع الذى يميل إلى ما يسميه البعض بالتفلسف، وما هو إلا نوع من تأصيل الأمور حين لا تحتاج الأمور إلى تأصيل، ذلك أن العامة فى جميع المستويات لا يستسيغون أن يجعلوا لكل شىء سبباً واحداً، ولكن هناك أناساً فى كل مستوى يحبون أن يبحثوا عن السبب، وعن الفروق بين المتناظرات، وعن الاختلافات بين الأحداث، وعن أثر الزمن فى الشىء الواحد، وأثر الشىء الواحد فى الشخصيات المختلفة، وعن تقدير كل أمر بالنسبة إلى شبيهه،

وكان صاحبنا البنجالاديشى من هؤلاء، فإذا قيل له إنه أستاذ (بروفسيور) من باب التقدير للتسكيت وقفل باب الموضوع قال إنه ليس أستاذاً ولكنه مدرس فقط، وهو بهذا لا يتواضع، ولكنه يواصل ما عهد منه من التدقيق كصورة من صور التفلسف.

والحق إن صاحبنا البنجلاديشى كان ينصت فى اهتمام، ولهذا كان يفهم بالقدر الذى يؤهله للمناقشة التى تضيف أبعاداً، لا لتستوضح أبعاداً.

وكانت له حركات تمثيلية يمكن وصفها بأنها رائعة لو كانت لسياسى، ولكنها معيبة عليه وهو رجل علم يلقى بحثاً فى التلوث لا خطبة سياسية فى الحث على اتخاذ موقف معين، كان يثير الضحك طيلة إلقائه لكلمته، ومن قبل طيلة رئاسته للجلسة التى سعدت برئاسته، وحين ألقى كلمته امتد بحثه أكثر من الوقت المقرر فنبهته الرئيسة لذلك بضرب الجرس، واستمر، حتى نبهته ثانية وثالثة. وأدركت أن أمر المناقشة إذا فتح معه فلن ينتهى، فعمدت إلى الأسلوب المعهود فى مثل هذه الحالات حيث ألقت عليه الأسئلة مكتوبة مرة واحدة، وطلبت تعليقه عليها دفعة واحدة.

وكان هناك اثنان من الهنود المشاركين فى المؤتمر هما أكبر الجميع سناً، وكانا يحقدان أو ينفسان على ذلك الزميل، وقد لا يكون لهذا سبب إلا سبب السن، كانا لا يفتآن يضحكان عليه بصوت مسموع إذ رأس وإذ تحدث، وكانا لا يستحيان من أن يبديا سخريتهما من أفكاره وحركاته على نحو ملحوظ.

وقد كان من حظى الحسن بلا شك أن يكون هذا البنجلاديشى زميلاً لى فى الغرفة. وكان اسمه «أنور» وقد أتاح له هذا الاسم أن يظفر بنظرات التقدير من الأعضاء عندما يسألوننى الرأى عن الرئيس السادات، فأختم حديثى عن براعته السياسية بأن زميلنا البنجالاديشى يحمل اسم رئيسنا، ولم يكن بد لزميلنا البنجالاديشى فى كل مرة من هذه المرات من أن تغلبه طبيعته، فيقول إنه أنور ولكنه ليس أنور

السادات، ولم يكن فى هذا جديد على الناس، ولكنه الطبع يغلب العقل والتعقل قبل أن يغلب التطبع!.

❑

أما زميلتنا البولندية، فكان فيها ذلك الجمال الهادىء الذى مرده إلى الملامح ولون البشرة ورقة التقاطيع، وقد تخرجت حديثاً من كلية الهندسة والتحقت بهيئة البحث فى الجامعة، وقد حظيت بالاهتمام الشديد لأحد الهنود، وكان شاباً هندياً قد تخرج لتوه - هو الآخر - من كلية الطب، وبدأ طريقه فى عالم الطب النفسى فى مستشفى بالقرب من نيودلهى، وكان دائم الجلوس إليها والاحتفاء بها والاهتمام بطلباتها، غير أنه فى الواقع، لم يكن يضيق بحديث أحد إليها، ولا بحديثها إلى الآخرين.

وإذ كنا نتبادل العناوين كتابة فى مفكراتنا، كانا يجلسان كالعادة إلى جوار بعضهما، فكتبت لى عنوانها وعنوانه. وأخذت هى تقلب فى صفحات مفكراتى حتى عثرت على الصفحة التى كتب فيها طبيب هندى آخر عنوانه، ولفتت نظرى إلى أن هذا الطبيب الهندى وصديقها أخوان، وكانا بالفعل لهما نفس اللقب، وكانا يعملان فى نفس التخصص، وفى مستشفيين قريبين، وكان من الطبيعى أن أفكر أيهما الأصغر، وأيهما الأكبر، لأن ملامحهما لم تكن متشابهة بالقدر الذى يجعلهما توأم ولا حتى شقيقين، على الرغم من أن مرتبتهما فى سلم العمل الطبى (كنائبين جديدين) لا تتأتى إلا لأبناء الدفعة الواحدة، عندئذ ضحكت البولندية، ثم أخبرنى صديقها الطبيب الهندى أنهما ليسا شقيقين، إنما هو تشابه فى الألقاب، وتماثل فى التخصص، وزمالة فى الدفعة.

والحق أن هذين الطبيبين المشتركين فى اللقب كانا من أظرف مَنْ قابلت، وكان ثانيهما سعيداً بهذه التى شرت التى تحمل اسم المؤتمر على ظهرها، وعلى وجهها صوّرت الأرض فى صورة حزينة وهى تقول كتابة: «انظر! ماذا فعلوا بى؟».

كانت أطول الكلمات للفتاة التايلاندية الصغرى، فقد كانتا فتاتين، وأنت تعرف أنه من الصعب التمييز بين أهل بلاد الهند الصينية لتشابه الملامح إلى حد كبير، فإذا أضفت إلى هذا التماثل الملابس التى يلبسانها، أدركت ماذا أفادتنا الأحجام فى التمييز السريع والمباشر بين الفتاتين اللتين قدمتا من بانجكوك.

وكان هناك أيضاً اختلاف فى كلمتيهما، ولكن هذا الاختلاف لم يحرم الكلمة الصغرى من أن تحظى بالترتيب الثانى فى طول كلمات كل المؤتمرين، ولعل هذا الطول جاء معبراً عن ضخامة المشكلة التى يعانونها فى قضايا البيئة فى تايلاند، بل لقد جاءت مقدمتا كلمتيهما طويلتين بالقدر الذى يعبر عن المشكلة فى الدولة النامية، البادئة حديثاً فى الاهتمام بمجالات البيئة.

❑

أما طبيبا النفس الهنديان فقد ذهبا فى أمر محاضرتهما مذهب التعقيد، وكتباها فى ساعات طويلة، بل تأخرا عن حضور إحدى الجلسات لكتابتها.

وكتبا فقرات منها لا تحتاج إلى الكتابة على البروجكتور لعرضه، ورسما مثلثاً للعوامل الثلاثة البيئة ـ العامل ـ المعاكس ، وحين أخذا يلقيانها قسماها فقرة لهذا وفقرة لذاك، وقد وقف أولهما على المنصة، والآخر على جهاز العرض، واستدعى ذلك أن يقف أحد الأعضاء ليطفىء الجهاز وينيره فقرة بعد أخرى وليس على البروجكتور كلام مكتوب، إنما هى طبيعة بعض الأطباء النفسيين المبتدئين يظنون أنهم يبسطون بالتحليل، بينما هم يعقدون الأمور بالتحليل من دون أن يدروا، ولكن الناس مع هذا يفهمون الحقيقة... وكذلك المرضى!.

❑

قابلت عميد كلية العلوم فى استراحة من استراحات الشاى فرحب بى، ووجدته

على علم بما تم فى المؤتمر، ومن أى البلاد بالضبط أتى أعضاؤه، وتطرقنا إلى موضوعات المجاملة المعهودة فى مثل هذه الحالات: أول مرة هنا؟.. هل أنت سعيد.. كيف كانت الرحلة.. الجو هنا وفى مصر... إلخ.

وفى اليوم التالى فيما بعد استراحة القهوة، ومعرض الملصقات، دعينا إلى فناء المدرسة لأخذ الصور الفوتوغرافية، وجاء أستاذ الطبيعة فأخذ يكتب الأسماء (بالحروف الأولى) على الكرسى حتى تأتى الصورة على النحو الرسمى، ووقفنا خلف العميد واللجنة المنظمة، وانطلق الزميل الذى أنيطت به مهمة التصوير ليأخذ اللقطات بأكثر من كاميرا، وعلى الرغم من أنها لم تكن كلها له، وإنما كانت له ولزميلين من الزملاء الهنود إلا أنها على كل حال فكرة حسنة جديرة بالأخذ بها فى مثل هذه الأحوال التذكارية، وإنى أذكر أكثر من مناسبة هامة أقيمت، واقتصرت اللقطات التذكارية على كاميرا واحدة، أصابها العطل فلم تظهر منها صورة.

أما مكتب العميد فلا يزيد على مكتب ناظر مدرسة ابتدائية فى الريف المصرى، على أن فيه شيئاً راقيًا هو أنه متصل بباب جانبى بالحجرة التابعة لشئون الطلاب والتى تحتوى الملفات والسجلات، وهو تقليد جميل يغنى عن السعاة، ولكنه مع ذلك متبع فى بلد تعانى من كثرة السعاة.

وكنا نستعمل دورة المياه التى كتب عليها أنها مخصصة لأعضاء هيئة التدريس فقط، وهى تخلو من الصابون، وكذلك المطعم، وكنا إذا فرغنا من تناول الوجبة وغسلنا أيدينا بالماء نعمد إلى منشفة نتناوبها نحن الأربعين فنمسح بها أيدينا جميعاً... ولم نستشعر فى ذلك حرجاً عند أى من الهنود على الإطلاق.

❑

وزرت معامل كلية العلوم، وقضيت الشطر الأكبر من هذه الزيارة فى معمل

الميكروبولوجيا، وقد أظهر الأستاذ سعادة كبرى بزيارتى وملاحظاتى، والحق أن سعادتى به قد تكون أضعاف سعادته.

كنت أتفحص الأجهزة وكلها هندية الصنع، وأسأل عن ثمنها، فلما وجدوا أنهم لا يتذكرون هذه الأثمان على الوجه الدقيق رجعوا إلى أوامر التوريد، وأرونى الفواتير كلها.

ولاحظت أنهم يحرصون على ذكر اسم العالم الذى اخترع الجهاز أو طوره على نحو تفخر به الأمانة العلمية. وكنت أبحث عن جهاز من هذه الأجهزة جميعاً لم يصنع فى الهند فلم أجد استثناء على الإطلاق.

ويكفى الهند أنها حققت التفوق فى هذا المجال.

❑

كان كثير من طلاب كلية العلوم يتجمعون حولنا لنكتب لهم سطوراً للذكرى فى «أوتوجرافاتهم» وكنت فى البداية أظن أن الأمر ليس إلا تبادل عناوين كما نفعل نحن مع مندوبى الدول فى المؤتمر، ولكنى اكتشفت عندما تكاثر علىَّ العدد أنهم طلبة الكلية، عندئذ انتبهت إلى أن أكتب لهم عبارة من العبارات التقليدية التى تكتب فى الأوتوجرافات، ولكنى لضيق الوقت كنت أقتصر على عبارة لا تزيد على السطر، وكنت أستحى من هذا الامتنان الذى أجده عندما يتلقون من يدى «الأوتوجراف» فكنت لهذا أعطيهم مفكرتى ليكتبوا عناوينهم من باب إزالة الإحساس بهذه المنة التى يتصورونها.

❑

وكان علينا تبعاً للبرنامج أن نذهب إلى مدينة تبعد ١٥٠ كيلو متر عن كاراد، ليس لك أن تسألنى الآن عن الغرض من زيارتها، ولكن لك أن تتصور رفاهية الهند الفقيرة عندما يقرر السيد الرئيس أن تبقى الغرف محجوزة لنا فى هذا الفندق مع أننا سوف

نقضى يومين وليلة فى مدينة أخرى وفى استطاعته أن يوفر على المؤتمر نفقات هذه الليلة، وبخاصة أنه يعرف أن الفندق ليس على هذه الدرجة العالية من الإشغال بحيث يحتاج الأمر إلى مثل هذا الاحتياط العظيم.

وقالوا لنا فى المساء إن موعدنا السادسة صباحاً وأيقظ الجميع بعضهم منذ الخامسة، ولكن على نحو العادة فى مواعيد البلاد النامية فقد جاءنا الأتوبيس «العظيم» فى التاسعة.

وانظر إلى «رفاهية الفقر» عندما جاء معنا فى الأتوبيس حوالى خمسة من العمال مخصصين لا لشىء إلا ليوزعوا المياه الغازية التى سينال الفرد منها زجاجة أو اثنتين، وآخر حمل الآلة الكاتبة حتى لا يوقع الرئيس خطاباً كتب بخط اليد!، أو على ورقة كتبت على ماكينة غير تلك التى تحمل معانى الخلود!، وكانت هناك أيضاً مروحتان كهربائيتان من ذوات القوائم حملهما معه الأتوبيس، وكنت أظن أن فى الأمر تكنولوجيا سوف تسمح بتشغيل المراوح بطاقة تستخرج من الأتوبيس، على نحو ما يعمل الراديو والتكييف، وقلت إن المراوح هى الصورة (النامية) من التكييف. ولشد ما كانت دهشتى عندما فهمت أن هذه المراوح ستنقل فى الأتوبيس لترّوح معنا حيث نذهب.

❑

لم يغادر الأتوبيس كاراد حتى توقف مرة تلو مرة فى أزقتها وشوارعها يحمل إناساً لم نعرفهم أو نصادفهم فى المؤتمر، ولم أكدّ ذهنى لأفهم أن هذه السيدة هى حرم السيد الرئيس، وقد تزوجها عن قرب.

ولم يكن من الصعب علىّ أن أفهم أيضاً أن هاتين الفتاتين ليستا إلا زوجتى اثنين

من أبرز الأعضاء الهنود فى المؤتمر، تزوجا من مدة قصيرة، ولم تتح لهما ظروف الحياة أن يقضيا شهر العسل فأجلاه ... وجعلاه يومى عسل.

❑

هانحن نتوقف المرة تلو المرة بالسيارة، وينزل الركاب ثم يعودون، لا يعرفون لماذا نزلوا، ولكنهم ملوا الجلسة وضجروا من هذه المقاعد الجافة، وبين هذه الارتجاجات.

وقد قضيت الساعة الأولى فى تقلب على الكرسى الذى اتخذت لنفسى منه سريرا، ثم أخذت بعد ذلك أتطلع إلى جمال الرحلة الذى لم يبدأ فى التجلى إلا بعد أن عبرنا مدينة «كوالبور»، وقد أصبحنا فى طريق ممهد فى سلسلة الجبال المتتالية، يمضى الطريق على حافة الجبل فيحيط به ثم ينتهى إلى الجبل الثانى فيدور على حافته وإلى الثالث فالرابع ثم الخامس فالسادس والسابع والثامن فالتاسع ثم العاشر فالحادى عشر فالثانى عشر ثم الثالث عشر وهكذا سلسلة متوالية من اللفات فى طريق ضيق يكاد يتسع بالكاد لسيارتين، على أننا لم نقابل طيلة الرحلة الممتعة أكثر من عشر سيارات فى الطريق كله.

❑

وجاء موعد الغذاء فوجدتهم يفتحون هذه الصفائح التى حملها الأتوبيس ويخرجون منها أصناف الطعام.

إنى لا أريد أن أتذكر هذه الأصناف ولا تلك اللحظة الآن، إنما يعنينى أنهم جلسوا إلى الشجرة، وأخذوا يمدون أيديهم إلى الصفائح واحدة بعد أخرى ويضعون ذلك المسمى طعاماً فى أطباق وينادون على الزملاء. ولم أتناول غير الخبز، إن جاز أن يسمى هذا بالخبز.

والتقينا بعد الطعام وكانت فرصة لتبادل المشورات الجانبية مع الأعضاء حول مؤتمر القاهرة القادم، ودعوتهم، والتمويل، وما إلى ذلك من الأمور.

ثم وجدتهم يدعون بعضهم إلى النزول إلى البحيرة وكان بيننا وبينها قرابة ١٥-٢٠ متراً فوعدتهم أن ألحق بهم، وقضيت بعض الوقت مع أحد الهنود ومع مندوبة تايلاند وكانت قد استلقت تماماً على فروع شجرة من الأشجار، على نحو رأيته لأول مرة، وإن كنت قرأت وصفه في كثير من القصص، خصوصاً تلك التي تجرى حوادثها في مثل هذا المناخ.

❑

وذهبنا إلى البحيرة، ولم يكن من السهل علينا أن ندرك مكان الزملاء من علٍ نظراً لهذه الالتفافات بين كل درجة وأخرى من الخمسة عشر متراً، ونظراً لكثرة الأشجار النامية على أطراف هذه الدرجات، على أنهم سرعان ما أحسوا بمقدمنا إذ سمعوا صوتي، وسمعت منادياً يقول «آليى جوادى.... هااللواء وكان المنادى هو الطبيب الهندى، وكان يعتبر لقبى مكونا من كلمتين منفصلتين تماماً.. الأولى هى إداة التعريف مع شيء من المد فى نهايتها.

وأدركنا الحظ ببعض اللقطات الفوتوغرافية على هذه المدارج الفاتنة، والحق أن جمال الطبيعة الأخاذ لا يدع مجالاً أمام حواس البشر إلا أن تعترف بقدرة الخالق عزَّ وجلَّ.

ووجدت أكثر من واحد من زملائنا الهنود قد خلعوا ملابسهم ونزلوا إلى البحيرة، ثم خرجوا وهم يشكرون الأقدار التى أتاحت لهم هذا الماء الجميل فى هذا اليوم !.

❑

وحان موعد الاجتماع فخرجنا من البحيرة والتففنا، وكان الموضوع يتعلق بالتلوثات الصناعية، وكان من المفروض أن ألقى تقريراً مقتضباً عن هذه الناحية فى

مصر، وغلبت على تعليقاتى عنصر التفاؤل، وأشرت إلى أهمية اقتناع الوزراء بمثل هذه البرامج، فخوراً بعقليات وشخصيات وزرائنا المصريين.

ثم جاءت بعد هذا الاجتماع أصعب اللحظات الحرجة، حيث بدأنا صعودنا إلى الجبال بعد كل هذا الذى عانيناه من تعب السفر والملفات القاسية، وبعد وجبة متعبة، وبعد اجتماع طويل، وبعد ملل.

كان علينا أن نمتع أنفسنا بصعود الجبل بعد كل هذا، وكان علينا أن نمضى فى الصعود لأكثر من خمسة كيلو مترات، كانت القمة حوالى مائتى قدم، ولكن الوصول إلى القمة على الأقدام يستدعى أضعاف هذه المسافة الطويلة نظراً لكثرة المنحنيات على طول الطريق الصاعد.

❑

كنا نصعد هذا الجبل كى نزور إحدى المحميات الطبيعية حيث يكفّر الإنسان «المعاصر» عن خطايا الإنسان «الحديث» الذى لم يترك فرصة لتدمير البيئة من أجل التنمية البشرية فى عصر الصناعة إلا وفعل، ثم إذا هو اليوم ينتبه ببعض كيانه إلى أهمية الحفاظ على «النادر» و «الأصلى» فتبدأ الجهود لإقامة هذه المناطق التى تُعزل بفضل الفهم الصحيح عن الحياة الحضارية الصاخبة من حولها لتبقى للأجيال القادمة رمزاً كبيراً بل حقيقة من حقائق الماضى بكل ما فيه من مناقب لا ينبغى الذهاب بها.

كنت أعانى من كثير من المتاعب، وكان الآخرون يعانون أيضا، ومع ذلك كنا جميعاً نمرح، كنا قد قُسمنا إلى ثلاث مجموعات حتى لا نضل الطريق فى شعاب الجبل، وذهبت مجموعتنا معاً، وأحضروا لى عصا أتكىء عليها إذا استقمت فى وقفتى، وأتحسس بها طريقى إذا أقدمت على منطقة مظلمة، وأستند عليها معتمداً على مقاومتها للأرض فى تدعيم صعودى. وكانت هذه الوظائف الثلاثة للعصا تكاد

تذهب بكيانها لحظة بعد أخرى، فتشكو، فيأتون بأخرى، وكنت أظن أن العصى الغلاظ أصلح، ففوجئت أن العصا الرفيعة أقوى وأقدر.

❑

نبهوا علينا أن التدخين ممنوع، وأن الكلام ممنوع إلا قليلا، ولم يكن ثمة موضوع للحديث، فحادثتهم عن متاعبى، وأخذت أعدد، ثم غلبنى طبعى فقلت إنها سبعة متاعب فى الرأس، والكتفين، والعمود الفقرى، والمعدة، والقدم، وقناة إستاكيوس ، والجيب، وأخذوا يمزحون، وقال أحدهم : هل لو انتهت متاعب الحبيب تنتهى المتاعب السابقة، فقلت: لا.

واشتدّ على التعب، اللحظة بعد الأخرى، وهم مازالوا يبحثون عن الحيوان النادر الذى هو أبرز ما فى هذه المحمية فلا يجدونه، ويخفضون الأضواء فلا يجدونه، ويضيئونها فلا يجدونه، ويدورون هنا وهناك فلا يجدونه. حتى انتهينا إلى ربوة منبسطة فى قمة الجبل فجلسنا إليها، وكان أعضاء مجموعتى قد خدعوا المجموعة الأخرى من باب المزاح، وقالوا لهم إننا رأينا أربعة من هذا الحيوان المنقرض. وسُئلت فى السر، فقلت: إننا لم نر شيئاً، وهكذا لم يكشف سر الكذب إلا صدق واحد فقط، هو أنا، لعله لم يكشف السر حبا فى الصدق فحسب، ولكنه لأنه رأى أن الأمر ليس بذلك القدر من الإنجاز.

❑

لم تعد لى قدرة على التحمل، حتى هذا الحذاء الذى اشتريته فى أول هذا الأسبوع من محل مترو فى بومباى، ضج بالرحلة، وبأمرها وتمزق كعبه الخشبى حتى لم يبق منه إلا قالبه .

ثم جاء الفرج حين جاء إلينا مدير الغابة، واثنان من أصحاب الشأن فى إدارتها، كانوا يركبون سيارة جيب، وأبديت رغبتى العاجلة فى العودة سريعاً بهذه العربة! فتداولوا فى الأمر ولم يكن بد من أن يستجيبوا لى وأخلونى (كما يقول التعبير الحربى)، وأخلوا أيضاً بعض الزميلات اللاتى أتعبتهن الرحلة.

هذه هى العربة بموتورها، وعلى سرعة متقدمة تقطع المسافة فى حوالى نصف ساعة، بالله، كم صعدنا؟؟.

❑

على سفح الجبل وجدت الأتوبيس الذى جاء بنا إلى مشارف الغابة وبقى ينتظرنا... وعلى مقعد من مقاعده الخلفية استرحت بعض الشىء، كان علينا أن ننتظر دقائق ودقائق وأنصاف ساعات حتى حضر الجميع، مَنْ تاه منهم فى الصعود، ومَنْ تاه فى الهبوط، ومَنْ ضلَّ الطريق بعد الهبوط من الغابة! وهكذا قضينا الوقت منذ ما قبل الخامسة وحتى ما بعد الثانية عشرة ونحن على هذا الحال.

لا أدرى متى نمت؟، ولا أين نمت؟، ولا كيف مضى الوقت؟.

سارت السيارة الكبيرة بنا حتى أتينا إلى ما يشبه القرية. سمعنا ضجيجاً، وأصواتا تشبه أصوات السينما، كان غريبا أن تستمر السينما فى عرضها فى قرية ما إلى هذه الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ولكن ما العمل؟، والهنود قوم عاطفيون انتعشت فى بلادهم صناعة السينما، وتجارة السينما، وفنون السينما، ولا بأس أن تستمر السينما فى هذه القرى التى لم يصلها الفيديو بالطبع إلى الثانية صباحاً، وربما الرابعة وإلى السابعة صباحاً.

وحين علمت أنهم ينوون الذهاب إلى المطعم لتناول العشاء ثم يعودون إلى النزل،

طلبت إلى أولى الأمر أن ينزلونى فى النزل أولا إذا كان فى الطريق إلى المطعم، وقد كان، ونزلت فإذا هو بيت قروى، كلمة بيت هنا تعنى تنازلاً كبيراً. إنما قصد بها أن له أربعة جدران وحتى هذه فإنى بدأت أشك فيها! ليس فيه بلاطة واحدة، ولا دهان حائط، ولا دهان سقف، ولا دهان باب. إنما هى الأرض التى خلقها الله حرة تستمتع بالشمس التى تجدد لها رائحتها وقد أحاطوها بهذه الجدران التعسة والسقف، أين السرير؟ لا سرير، أين الفراش؟ لا فراش، أين الغطاء؟ لا غطاء، أين الوسادة؟ لا وسادة، هكذا كان حوارى مع الحارس، أحس الحارس بضخامة التبعة الملقاة على عاتقه فى مواجهتى فأخذ يحاول أن يفتح الأبواب كى يرينى أن هناك حجرات لعل ذلك يغفر لهم، وكنت أترقب فتح كل باب بفارغ الصبر، كنت أؤمل أن يكون وراء هذا الباب فى هذه الحجرة سريراً أو فراشاً أو غطاء أو أى شىء يبعث على الأمل، فلا أجد إلا هواء غير نقى.

❑

وليس لى بد من أن أريح بطنى مما تحتوى، وقد ذهبت عن نفسى الآن الفترة الأولى من الدهشة التى اعترتنى فأسكتت صوت بطنى، وسألت عن دورة المياه فأجابوا أيضا نفس الإجابة، هزة الرأس التى تصاحبها لا: (نيه) هكذا تنطق أداة النفى عند هؤلاء القوم.

فى حركة تمثيلية قوية قطبت حاجبى على النحو الذى يتكون منهما جناحا العدد ٨ ونظرت فى اشمئزاز وقد انعكس كل غضبى على ملامح وجهى وتقاطيعه.

وعندئذ أخذ بى الحارس إلى الدور الأرضى حتى خرجنا من المنزل وأصبحنا فى الخلاء ثم ذهب بى إلى شىء له باب كأنه شبه حجرة. وليس فيه ضوء. وقال لى إن هذه هى دورة المياه. ياللعجب! أين الماء؟ لا يوجد، أين النور؟ لا يوجد، أين

المرحاض؟ لا يوجد، لا بأس أعددت بعض الورق المهمل من حقيبتى، ونزلت إلى هذه الدورة، فالأمر لا يحتاج إلى تفكير، لابد من الخلاص على أية صورة.

على أن نبل الأخلاق، أو أثر الخوف، قد جعلنى بعد خمس دقائق أجد الخادم وقد جاء ينادى السيد، الذى هو أنا، وقد أحضر له الماء.

ثم ذهبت إلى حيث لم أمكث إلا دقيقة، وأخذت أتلقى الزملاء، وقد عادوا الواحد بعد الآخر من العشاء. وأنا أصرخ فيهم مع توتر الأعصاب: هل هذا يليق بالإنسانية، لا بالمؤتمر الدولى؟، هل... هل...؟

والهنود يشاركونى الرأى، ولكنهم لايجدون مانعاً فى قضاء الليلة على أى نحو، بدلا من أن يطالبوا بحق أو واجب، وكأنهم يكتفون بأنهم يشاركوننى المشاعر.

ليس من عادتى أن أطلب إلى الناس أن تقف ورائى، حتى لو كان الأمر يخصهم، إنما أفهم القيادة على أنها تفويض لا تعليق، لست من أنصار الذين يذهبون يستفتون ليجدوا فى الاستفتاء شماعة يعلقون عليها أخطاءهم، ولست فى حاجة إلى أن أبحث عن شماعة لأنى لا أبحث عن أخطاء، وليس من عادتى أن أورط بقيادتى مَنْ أعطونى الزمام، فى أمور ربما لا يميل بعضهم إليها من البداية، وإن استطعت إمالتهم إليها بالاستفتاء، وهو أمر سهل جداً، وليس فيه إنجاز إلا إنجاز الشماعة، والشماعات سهلة ورخيصة ولكنى أعتقد أن «الكتف» أولى بالمسئولية من الشماعة فإذا ناء فليكن كتف آخر، ولا تكن شماعة!!

وهكذا كان حالى مع الزملاء حين ناقشتهم فى الأمر فقالوا إنهم سينامون لتوهم فتمنيت لهم النوم الهادىء.

❑

بحـثت عن الرئيس فـصـدق ظنـى أنه قـد ذهب إلى مكان آخـر يليق بإنسـانيتـه السامية!! ناديت على السكرتير العام وقلت إنه المسئول الآن، وإنه من العار أن يذهب الرئيس هكذا، وإنه من واجبه أن يبحث لى الآن عن الفندق المناسب.

لم يجـد السكرتيـر بداً من الاعـتـراف بصـحـة مـا قلت، وذهب يبـحـث عن الرئيس فاتضح له أنه ذهب إلـى حيث توقعت، وكانوا على علم أن هناك فندقا قريباً من هذا النزل، فبعثوا إليه فعلموا أن الأماكن كلها مشغولة إلا شيئاً من المكان يمكن إعداده على نحو ما فيكون منه محل أو موضع لا يتميز على هذا الفندق بكثير.

ولم أوافق على هذا الحل، وعلمت أن الأتوبيس لا يزال قريبا منـا، فذهبوا إليه وأتوه وجاء معى السكرتير واثنان من الأساتذة إلى حيث ذهب الرئيس وطلبوا إلىّ أن أنزل مع أحدهم إلى حيث ينام الرئيس، فرفضت، وقلت لهم فى شدة لا تعطى أنطباعاً بأنه من الممكن أن أتساهل : إن الواجب أن يذهبوا ويأتوا به.

كنت على حق، وكـان على ضـلال، أو هكذا هيىء لى، وليس هناك حل فى هذه اللحظات إلا أن يرضونى، وذهبوا، وجاءوا به، وأراد أن يدخل علّى بأساليب السياسة فلم أترك له الفرصـة، وسألته فى شـىء من الصراحـة والصـرامـة والمباشرة، هل يليق هذا المكان بالإنسـانيـة؟ فلم يحـر جـواباً، وأنا أكـرر سؤالى حـتى قـال لا، فـأردت أن أتمادى فى توبيخـه، وقلت له هل يليق بك؟ فرد: لا، فـقلت له: لـم لم تأت إلينا حـيث بعثت بنا لتطمئن علينا قبل النوم؟.

هنا أدرك الرجل أن ليس من سبيل إلى تبرير أى من أخطائه، فاعتذر، وأراد كما يريد كل مـخطىء أن يبرر الأخطاء، فقال إن زوجتـه هنا تعبانة؟ وإن هنا سبع بنات لابد لـهن ممن يرعـى شـأنهن،....، يالـلزوج المشـفق على زوجـه، وياللرجل حـامى

حمى القوارير!، ولم أعر رده جواباً ولا تعليقاً، وإنما تركته يقودنى إلى حيث احتل لنفسه ولمجموعة من أصدقائه المقربين ممن ليسوا بالأعضاء الأوائل فى المؤتمر هذا المكان.

ما زلت بالرئيس أوبخه توبيخاً شديداً على فعله وإهماله، وهو يعتذر بأنها تجربة، وبئس التجربة، وبأنها (Exprience) هكذا أخذ يكرر، وبئس الخبرة التى تأتى هكذا، أو التى لا تأتى إلا هكذا.

❑

كانت الساعة قد تعدت الرابعة عندما وضعت رأسى على بساط رقيق قد وضع على الأرض، وغطائى السقف على بعد ثلاثة أمتار، وفوق السقف سماء الله. وتوكلت على الله.

ثم وجدتنى أستيقظ على هزّهم سريرى، فسألتهم عن الساعة فقالوا إنها الحادية عشرة صباحا، وإنهم يوقظوننى لأننا مسافرون للتو!! إلى كوالبور ثم إلى كاراد، وأخبرتهم بما سمعت من الرئيس من أننا لن نتحرك إلا الثالثة، فطلبوا إلى أن أغسل وجهى لألحق بالأتوبيس.

لم يبد على أنى تحركت فى نومى قيد شعرة من التعب، وما بالك بى إذ قمت من نومى إلى المرآة وهى الأثر الوحيد من الحضارة فى هذه الحجرة «الراقية» فوجدت شعرى على النحو الذى مشطته عليه فى اليوم السابق، ليس فى حاجة إلى أقل قدر من التهذيب أو التمشيط.

لم أكن قد تناولت إلى هذا الوقت شيئاً من الطعام، وألحوا على ثانية فى أن يأتوا إلى بالشاى، أو القهوة، وأتعلل بالتلوث الذى قد يكون فيهما، فلا يجد الواحد منهم إلى إعادة الكرة علىّ سبيلا.

غير أنى لم أكن أنتهى من إقناع الواحد من هؤلاء حتى يأتينى الآخر برجونى أن أتناول شيئاً، وهكذا ظللت على نفس الحالة من تكرار شكر كرم السؤال، وأريحية الاهتمام، والتكرار ممل... ولو كان فى أعظم المشاعر.

❑

عبرنا حدود المنطقة التى تتبع إدارة الغابات والأمر فى هذه الحدود ربما يحتاج إلى تشبيه يقربه من ذهن القارئ، ولعل أقرب تشبيه أن أطلب إلى القارىء أن يتصور معلوماته عن حدود المناطق العسكرية، ثم أصبحنا على مشارف البلدة الصغيرة، فاشترينا بعض الموز والبطيخ، وذهب جفاف حلقى!.

وها نحن نعاود الاستمتاع مرة أخرى برحلة الأمس الممتعة على حواف الجبال بمحيط الجبل فلا نتركه إلا عندما يتصل بالجبل الذى يليه فى السلسلة المتواصلة، لم يكن إمتاع اليوم بروعة إمتاع الأمس الذى سبق إلى الذهن والنفس، والأمر فى الإمتاع يتناقص، كما تعرف، بالتكرار.

ولا أفتأ بين اللحظة والأخرى أسأل عن كوالبور لا سؤال الاستزادة من المعرفة ولكنه سؤال التنفيس عن الضيق الذى أنا فيه من طبيعة السير الاهتزازية للأتوبيس.

وكنت قد طلبت إليهم أن يجعلوا طعامى فى المطعم القادم من الفواكه فحسب، فإذا هم يرسلون عاملاً بعشر روبيات وقد حددوا له ما يشتريه: نصف كيلو من هذا النوع، وربع من ذاك... إلخ، وبقيت انتظر صاحبنا الذى ذهب، فتأخر كثيراً، وأتأمل المطعم الذى نزلنا فيه فى كوالبور هذه، كان المطعم من دورين وكان صاحبه رجلاً نشطاً أخذ يرحب بضيوفه، ويذهب بالزبائن الآخرين إلى القاعة السفلى، ويتابع تقديم الطعام فى اهتمام.

وأعلن أحد الزملاء فى صوت عال أن التهاب الكبد الوبائى قد انتشر فى كوالبور فى الأيام الماضية، لهذا فهو يحذرنا من شرب الماء. وبعد قليل عاد العلماء البكتيريولوجيون المصاحبون لنا فأعلنوا أنه لم يثبت وجود الميكروب فى الماء ولهذا فهو مباح.

وشرب الجميع.

هذه هى طبيعة الهند.

ليس من الصعب أن تغير اتجاهاتهم إذا ما وجهت كلامك إلى العقل، ولكن من الصعب أن تغير الأمور إذا اتجهت إلى تراث الموروثات الذهنية. وأخيراً جاء الرسول بالفاكهة، وأحسسوا جميعاً بما فيها من مخالفة قواعد الكرم، فالموز غير ناضج، والعنب من النوع الردىء المر. كذا اليوسفى، ولكن هذه كانت على أية حال خيراً بكثير جداً من التوابل مهما نضج طعمها، أو لاقى القبول.

❑

تأخذنى الفكرة بعد الفكرة لأسارع بالسفر من بلاد الأوبئة، فقد أصبحت صحتى اليوم لا تقوى على تحمل النملة تسير على الجسم من دون أن تداعبه، فما بالك بهذه الأوبئة اللعينة وأنت تقرأ عنها فى الصحف الهندية المكتوبة بالإنجليزية والتى تحمل ذات الأسماء التى تحملها الصحف الإنجليزية والأمريكية الكبرى، التايم، الإكسبريس... وهلم جرا..

وتسمع عن مدى الاوبئة من الزملاء الهنود، هذا إذا أهملت جانباً ما درسته فى الطب أو ما سمعته من الذين سبقونى إلى زيارة هذا البلد.

ونخرج بعد الغذاء لزيارة مبنى الجامعة الرئيسى فى كوالمبور، ونمر ببعض الكليات

فأعجب لهذا الجمال الذى صاغ به الفنان الهندى واجهات هذه الكلية، وأسأل فيقال إنها كلية الزراعة ونمضى إلى المبنى الرئيسى وعلى الباب قد وقفت لوحة رخامية على عمودين رفيعين جانبيين على نحو ما نفعل باللافتات الخشبية فى مصر، وقد كتب عليها ما ينبىء عن تاريخ نشأة هذه الكلية كمعهد علمى رفيع.

❑

من الصعب على المسافر أن يخرج من مطار بومباى فى وقت قصير، ولهذا فإن شركات الطيران تُعنى عناية خاصة بأن تؤكد عليك بالحضور قبل موعد الإقلاع بثلاث ساعات على الأقل، وتبدأ مكاتب الفحص والوزن عملها قبل الإقلاع بثلاث ساعات فعلاً، وعليك أن تقف فى البداية فى طابور طويل لتدفع ضريبة مغادرة الهند (مائة روبية كاملة) يدفعها كل مغادر، هندياً كان أو غير هندى، قضى يوماً أو أياماً، سافر للعلاج أو للراحة، وأخذت استقصى حتى أجد فئة يستثنوتها، فقالوا: إنهم يستثنون الدبلوماسيين على مضض.

ليس من السهل أن يتوزع العمل فى الفحص الروتينى فى مطار بومباى على أكثر من مكتبين، فراحة الزبون والاهتمام بأمره هنا ليسا بهذه الدرجة من الأهمية على الإطلاق، والصفوف تطول نتيجة لهذا التكدس على مكتبين اثنين فقط، ومهما طالت هذه الصفوف فإنها لا تبلغ الصف الذى ينتظر الأتوبيس، وقد بلغ عدد الواقفين فيه أربعمائة فرد.

مما يلفت النظر بشدة مظاهر الوداع المروعة، وأنت تراها هنا مفعمة بالمشاعر الجياشة والحماسة الزائدة، وعلى نحو يتطلب كاميرات السينما والتلفزيون، ليسجل هذه المناظر ويستعين بها فى مونتاج الأفلام.

هذا شاب أخذ نفسه بشيء من الوجاهة لم يكتمل له بعد، مسافر، متوكل على الله لا شك فى ذلك، لعله يبغى العلم أو العمل، يبغى الجاه أو المال، ولكنك تجد حوله طابوراً طويلاً من النساء والرجال لا يبكون، ولكن تظهر عليهم أمارات الحزن والأسى حتى إذا أمسكوا به أو هموا أن يمسكوا به للوداع أخذوا فى البكاء والعويل الشديد الذى لا أول له ولا آخر، ولكن الواحد منهم لا يبدأ هذا البكاء إلا إذا عانق صاحبنا وقبله.

ويبدو أن القبيل كله يجيء لوداع الفرد منهم، وهى فرصة الضابط (أو أمين الشرطة) أو العسكرى الصغير لينهرهم ويبعدهم عن صالة التوديع، فهى ليست لهم، ويذهب العسكرى بعيداً فيدخلون، ثم يأتى فيخرجون، ويأتى غيره فيدخلون، ويأتى غيرهما فيخرجون... وهكذا بلا رابط ولا ضابط.

ولك أن تقول إن المسألة شخصية إلى أبعد الحدود.

❑

إذا حدث وتبقت معك بعض العملات الهندية فإن لك الحق فى استبدالها، ولكن هذا الحق مقيد بشروط، وانظر إلى الروتين، لابد أن تطلعهم على تذكرتك، والتذكرة هنا لا تصلح إلا إذا كنت قد وزنت امتعتك بالفعل، وأخذت كارت الجلوس فى الطائرة (البوردنج كارت) وعليك أن تريهم جواز السفر ليأخذوا رقمه وتاريخ صدوره ومكان الصدور (كذا) وأن ترى ما يثبت أنك أنت، صاحب هذا الجواز قد حول مبلغاً وهو داخل، وبالطبع لابد أن يكون المبلغ الذى حولت أكثر من المبلغ الذى تحوله الآن، ولابد أن ينظر فى صورتك وفى الصورة التى فى الجواز، ولابد أن يحرر بذلك قسيمة من أصل وصورتين، يعطيك واحدة منهما، ولابد أن يأخذ القسيمة الأولى كمستند.

لم يكن قد تبقى معى من الروبيات إلا ما يعادل دولارين أو أقل قليلاً فأخذت أبحث فى جيوبى حتى أكملتها ما يوازى ما تتطلبه الإجراءات، وذهبت لأشاهد سينما الروتين من خلال هذه الإجراءات، وكأنى أشاهد السينما مجاناً. اندمجت فى الفيلم الروتينى وأنا أتابع تفصيلاته أراقب يدى الموظف (الشاب) وهما ترتعشان حين تكملان هذه الإجراءات وحين يأخذ رقم الباسبور المطبوع ويجده مخالفا للرقم الذى فى ورقة التحويل الأولى فيلتفت (وأنا ساكت لا أظهر أى ضجر منه لأنى لا أحب أن ألفت نظره إلى حقيقة موقفى المستمتع بالمشاهدة ولأنى أريد أن أشاهد الفيلم لا أن أشارك فى إخراجه) إلى أن هناك رقما آخر.. وهكذا. لا علينا أن نمضى فى استقصاء ما فعل الروتين.

❑

نعود الآن إلى صالة الجوازات، هذا ضابط بوليس يبحث فى كل أوراقك وتاريخك والبلاد التى سجلت أسماءها على جوازك، ويسألك أين تذهب، ويتأكد أن البلد الذى ستذهب إليه قد أعطاك الفيزا، وليس له شىء من ذلك، ولا فيه ولا عليه منه شىء، إنما هى مشاغل يشغل بها الذين لا يجدون الهموم أنفسهم!

ولا يزال بك هذا الضابط حتى تسلم الروح لا إلى بارئها ولكن إلى آخر يبحث فى إقراراتك التى دخلت بها وأى ذهب أو كاميرا أو أشياء قيمة كانت معك ويقارن بين هذا وذاك، وثالث يفتح الحقائب التى بيدك ويفتشها ركنا ركنا فى شىء من المهانة أو الإهانة.

ورابع يفحصك فحصاً دقيقاً، ثم تذهب فى طابور يتأكد أنك قد دفعت ضريبة الخروج من الجحيم، ويختم لك الجواز! وآخر يتأكد من إجراءات الجوازات ويختم لك الجواز! وثالث ورابع..

وفى هذا المطار شاهدت لأول وآخر مرة فى حياتى، حتى ذلك اليوم، ما يسمى بالتفتيش الذاتى للسيدات!!

❑

ثم يبدأ طابور طويل لنذهب إلى قاعة الانتظار لا التى تؤدى إلى البوابة، ولكن التى تؤدى إلى سلم آخر يؤدى إلى قاعة الانتظار التى تؤدى إلى البوابة حيث هذه الدوائر التلفزيونية المغلقة وقد جلس على إدراتها من حيث لا ترى صبى صغير لا أدرى هل هو فى السابعة أم فى السبعين وأخذ يلعب تارة بحرف A وتارة B وتارة X وتارة بعلامة استفهام، وتظهر الشاشة كل هذا اللعب فلا ينتبه أحد ليطلبه على التليفون فينهره، ويستمر الصبى فى عبثه ساعة طويلة قضيناها فى القاعة التى وصفت، وليس هناك أمل من الأنتظار على هذا النحو وموعد الاقلاع يقترب فلا يناديك أحد. ثم يجىء مَنْ ينادى فيقف الناس ويقف لهم على أول درجة من درجات السلم يحول بينهم وبينه إلى أن يتكوموا فيفسح لهم. ونذهب لنركب الأتوبيس فتجد الناس الذين سبقوك قد حشروا فيه حشراً، والرجل مصر على أن يزيد الحشر.

وتتطلع إلى الطائرة فلا تجد أمامك طائرة وإنما يمضى الأتوبيس على أرض المطار بين عشرة أتوبيسات أخرى من أمامه وعن يمينه وعن شماله ومن خلفه. ما هذا.. أشارع غير الشارع؟ وفى مطار دولى؟

ثم يقف الأتوبيس ويقف كل ما بعده من أوتوبيسات، وأسأل السائق فيقول إن طائرة ستقدم من هذا الطريق ويأتى موتوسيكل على النحو الذى تشاهده فى شوارع القاهرة حين تقف الإشارة بالعربات فيشق الموتوسيكل طريقه بين السيارات، وتأتى بعد عشر دقائق طائرة عملاقة من طائرات الخطوط البريطانية فتنطلق والناس تصفق

لمهارة الطيار، ولكن الإشارة لا تفتح لنا فهناك طائرة أخرى قادمة، هندية، ولكن الطيار ليس على ذلك القدر من المهارة التى تتيح له (فى عرف الناس) أن يصعد إلى السماء عند ذات النقطة التى صعد عندها الإنجليزى.

وتفتح لنا الإشارة الخضراء الطريق إلى الطائرة، والطائرة إيرياص، باب واحد، والجمع محتشد، يدفع بعضه بعضاً، وركاب الدرجة الأولى المساكين محشورون بين ركاب الثانية، وعلى باب الطائرة الوحيد وقفت مضيفة باكستانية لها شبه كبير بالمصريات وهى تدخل الناس واحداً بعد واحد بعد أن تسألهم عن أرقام مقاعدهم وتشير بعدها على نحو تقريبى يبين هل المقعد قريب جداً، أم قريب فحسب، أم بعيد، أم بعيد جداً.

وكثيرون لا يقرءون، وكثيرون يركبون الطائرة لأول مرة.

والطائرة متحركة ولكنها لا تقوم، ويُقفل الباب ثم يُفتح ثم يُقفل أربع مرات ويعود الطيار ليعتذر ويقول إننا سنتحرك (إن شاء الله) وتمضى ساعتان على هذا الحال.

لكن ما إن قامت الطائرة حتى طارت على نحو مريح.

❑

ليس الفقر فى الهند راجعاً إلى قلة الموارد، ولا إلى كثرة السكان، هذه حقيقة فى موضوع الفقر الهندى، سنطلقها الآن من دون أن نقيم عليها الأدلة والبراهين، ولكننا سوف نجدها واضحة أمام الأعين إذا ما تأملنا مظاهر هذا الفقر.

الفقر فى الهند هو فقر عمل، الهنود قوم يمتازون بالجلد على العمل، وهم يستطيعون إتقانه، وإكماله، والتفانى فيه، وهم قبل ذلك بشر، خلقوا ليعملوا ليحصلوا على لقمة العيش، ليعيشوا، وعلى عادة الفهم الإنسانى البسيط أدركت الفطرة الإنسانية

أنها خلقت لتعيش، ومازلت على اقتناع بهذا المبدأ، حتى وإن انتحرت بعض النفوس.

❑

ليس فى الهنود أنفسهم بلادة ولا إحجام عن العمل، ولا رضا بالذل ولا بالفقر، ولا بالمكسب القليل بدلا من الكثير، وإنما المسألة فى بساطة شديدة هى أنهم لا يجدون ما يعملون.

وتعال معى نناقش المظاهر:

• هل هذا الرجل الذى يقضى نهاره وليله (لأكثر من ١٨ ساعة) يبيع الفول السودانى المقشر أو الحمص أو الترمس أو جوز الهند أو قطع الحلوى البسيطة أو أو أو.... إلخ يعمل؟ الجواب: لا، هذا ليس بعمل على الإطلاق، أن يجلس هذا الإنسان بكل ما حباه الله به من ملكات ليقدم كل عشر دقائق قرطاساً من هذه القراطيس فقط.

ولقد كنت منذ سنوات قريبة أمرّ بأمثال هؤلاء فى مصر أو يمر بى أمثالهم، فأتأمل حالهم، وكان الجنيه يومها من الدخول المتوسطة، وأسأل نفسى هل يستطيعون أن يبيعوا فى اليوم كله بخمسين قرشاً فلا أجد وسيلة لذلك إلا أن أراقب بنفسى، فراعنى ما وجدت من أمرهم إذ لا يبيعون بأكثر من ربع جنيه أو ثلاثين قرشاً أى أن حجم تجارتهم كله (رأسمال، واستثمار، وأجور، وأيد عاملة) لا يتعدى ربع الدخل المتوسط فى أمة كانت تعانى يومها من كل شىء لكى لا ترفع صوتاً فوق صوت المعركة.

هذا هو الحال فى الهند أكثر من ٢٠ ٪ من أيديها العاملة - بلا مبالغة - تقضى حياتها فى مثل هذا النوع من التجارات التى لا تبلغ فى رأسمالها مرتب يد من أيدى مَنْ نسميهم فى جهازنا المركزى للتنظيم والإدارة بالخدمات المعاونة.

• هؤلاء الشحاذون الذين قد يمثلون نسبة ليست بالنادرة من عدد سكان الهند، والذين يتنوعون ما بين طفل وطفلة وصبى وصبية ورجل وامرأة وشيخ وعجوز، وشاب وشابة، هل كل أولئك انحطت نفوسهم إلى الدرجة التى رضوا فيها بكل هذا الهوان؟ لا أظن أن الإنسانية التى كرمها الله أعظم تكريم ترضى لنفسها هذا الهوان إلا أن تكون الظروف أقوى منها بحيث تفضل هذا الهوان على هوانات أخرى!

• حين كنت فى مطار الكويت فى طريقى إلى الهند، أخذ الضابط بعض جوازات هندية أمامه حتى بلغ عددها الستين جاءت جميعاً على طائرة واحدة هى طائرة بغداد ثم حدث زميله بالذى وجد من هذا العدد الضخم فسأله فقال فى مزاج هادىء الأعصاب «جاءوا ينشرون الدعوة»!! ولست فى حاجة إلى أن أقرر صعوبة ظروف العمل فى بغداد يومها إذا ما قورنت بالكويت.

الهند، مارس ١٩٨١

2

فى الولايات المتحدة الأمريكية



فى ندوة الشيخوخة والتقدم التكنولوجى التى نظمها مركز بحوث الشيخوخة فى جامعة جنوب كاليفورنيا بلوس انجليس استمعنا إلى محاضرة قيمة لأحد الأساتذة الذين جمعوا فى مؤهلاتهم بين تخصصات مختلفة وقد حدثنا فيها عن مستقبل الشيخوخة فى القرن الحادى والعشرين، وقد استعان كثيراً بالشرائح الملونة. وناقش قضية التصنيع وإعادة التصنيع وما بعد التصنيع واللاتصنيع "De, Re, post" وتحدث عن عصر المعلومات: المعلومات فى مجال المال، والطاقة، والناس، والسفر، والخامات، والمبانى. وكانت أكثر قدراته فى بناء أفكاره تعود إلى موهبته الفذة فى «الإسناد» كما يسمونه فى علم البلاغة العربية، أى ترتيبه للازدواج بين العناصر مع بعضها فى مجموعتين تأتيان معاً فى عبارات متتالية من زوجين.

تحدث عن الكمبيوتر: الماكرو، المينى، الميكرو، وأصغر الأنواع وهو Chip وعن إمكانية أن يقوم الكمبيوتر مع التقدم التكنولوجى بالحديث والاستماع والتركيب.. إلخ.

وقال إنه يتصور أن الكمبيوتر الذى سيكون مطلوباً فى القرن القادم سوف تكون له الخصائص الآتية:

- أن يكلف أقل من دولار.
- وأن يصلح لمائة سنة.
- وأن تحمله فى جيبك..

هذه الجملة تعطيك فكرة رائعة عن طريقة تفكير الأمريكان للتقدم فى المستقبل، فهذه العناصر الثلاثة تمثل ، بلا شك ، العناصر التى تحكم تفكيرهم فى صياغة التطويرات التكنولوجية على أجهزتهم المعاصرة فى إدارة الأعمال، وفى الطيران، ووسائل المواصلات، والاتصالات، والتعليم، والإعلام.. إلى آخره.

لابد أن يضعوا فى الاعتبار عنصر المال: كم يكلف؟ ولهذا فإنهم لا يجدون غضاضة فى أن يعتمدوا على صناعات خارجية تتيح لهم الشىء بثمن أقل مما تنتجه المصانع الأمريكية..

وعلى الرغم مما نسمعه هنا من أن الولايات المتحدة تفرض جمارك وضرائب باهظة على الخامات والمصنوعات القادمة لها من اليابان أو أوربا. وهذا صحيح، إلا أن الحقيقة، مع ذلك، تبقى أن الأمريكان، وحتى قادتهم، لن يشتروا سلعة أمريكية يجدون نظيراً لها من صناعة غيرهم بأقل بجزء من الدولار إلا إذا كان لفرق الثمن فرق ملموس فى الجودة!

العنصر الثانى هو العمر..

وعلى الرغم من أن الشائع عن الأمريكان أنهم أصحاب التبديل والتغيير والمودة.. وهذا قد يكون صحيحاً إلى حد كبير فيما يتعلق بالملابس، إلا أن الأمر ليس كذلك فى

كثير من مشترياتهم، خاصة وأن العقلية الاجتماعية المتقدمة تفهم أن العمر والقدرة على البقاء ليستا إلا صورة من صور التعبير عن الجودة أو المتانة أو الرصانة .. إلخ.

❑

وقد يتصور البعض أن العنصر الخاص بصغر الحجم أمر ليس فى حسبان الأمريكان، ولكن العكس هو الصحيح، على الرغم من الفكرة التى قد تعكسها العربات الأمريكية الفسيحة. أو العمارات الشاهقة من ناطحات السحاب..

وقد يستقيم الأمر ويكون أكثر قبولاً عندنا إذا فهمنا أن السيارة ليست عندهم إلا بيتاً كاملاً صغيراً، وأن العمارات ليست إلا مدناً كاملة ارتفعت رأسياً بدلاً من أن تمتد أفقيا. وهذه هى الحقيقة.

ويتصور الأستاذ الأمريكى أن يكون هناك كمبيوتر فى المطبخ تقول له إنك تريد أن تأكل روستى.

- من أى نوع؟

- بقرى.

- كم وزنه؟

- ١٠ أرطال.

- كيف النوع؟

- المتوسط.

- متى؟

- الساعة ٥,٣٠

- ok

وعن خصائص سيارات المستقبل كان تصور الأستاذ أن تكون بلا حوادث وبلا تلوث.

على أن أهم الأسئلة الكبرى التى تضمنتها هذه الندوة كان: ما هى الماكينة المخصصة لصنع السلام؟

❑

أما أساتذة الطب، والطب الوقائى بالذات فقد تحدثوا فى عدة محاور، من هذه المحاور ما ذكر أحدهم من أن: هناك جوانب غير قابلة للتطوير "Non-modifiable" فى الشيخوخة وهى:

١- تصلب جدران الشرايين.

٢- تكون المياه البيضاء فى العين.

٣- تغير لون الشعر (Graying).

٤- احتياطى الكلى.

٥- فقدان ليونة الجلد Elasticity of skin.

وفى المقابل فإن هناك جوانب قابلة للتطوير Modifiable فى الشيخوخة وهى:

١- قلة احتياطى القلب.

٢- تسوس الأسنان.

٣- تحمل الجلوكوز.

٤- مستوى الذكاء.

٥- الذاكرة.

٦- لين العظام.

ومن ألطف المفارقات (الأمريكية) بين الأمراض فى الماضى والحاضر تلك التى حدثنا عنها أحد أقطاب الندوة حين قال: كانت أمراض الماضى حادة، معدية، قابلة للعلاج، وكان أبرز الأمثلة على ذلك: الجدرى، والدفتريا، وشلل الأطفال، والتيتانوس، والسل، والزهرى، والتهاب الرئة، والزائدة الدودية. أما أمراض اليوم فهى مزمنة، تحللية Degenerative، متعددة، غير قابلة للعلاج وأهمها خمسة هى: تصلب الشرايين، السكر، الحوادث، السرطان، المفاصل.

❑

انظر إلى النظام كيف يبلغ حده اللانهائى مع الأمريكان..

فى مؤتمر النفسانيين السنوى الحادى والتسعين كان هناك ركن خاص بالرسائل، معروف سلفا أن الترتيب أبجدى، عليك وهذا سهل جدا أن تعرف أين سيكون اسمك، فى أى صندوق، من الصناديق الثلاثين، الفهرس أمامك، الصندوق الأول مخصص لكل مَنْ يبدأ اسمه بحرف AA حتى AM مثلا وهكذا تستطيع أن تذهب وقتما تشاء إلى الصندوق الذى تنتمى إليه فتنظر فى الصندوق التاسع مثلا هل جاءتك رسالة أم لا؟.. أما أن تكتب رسالة فهذا هو الأسهل، (الفورمات) جاهزة وموجودة بالآلاف، كلها نفس الحجم ونفس الطبعة ليسهل العمل، فى أعلى القصاصة اسم مَنْ ترسل إليه، طبعاً اسم العائلة هو المهم، وعليه العمل فى الترتيب، ولكن هناك أيضاً خانة الاسم الأول.. إذا انتهيت من كتابة رسالتك تركتها للسكرتارية الواقفة فى نفس المكان فوضعتها فى مكانها من الصندوق فى نفس الوقت أو على أكثر تقدير بعد دقائق..

انظر إلى هذا الأسلوب بتأمل؛ أليست هذه هى «**فعالية الاتصالات**»؟ نظم اتصالات محلية جداً، فعالة جداً، عملية جداً، رخيصة جداً سهلة التنفيذ على اللجنة المنظمة للمؤتمر، وانظر إلى نتائجها، وما تقدمه لك من خدمات.

ولكن هل تستطيع أن تطبق مثل هذا النظام بهذه الرشاقة فى دولة من دول العالم الثالث؟

ستجد مَنْ يقول لك فى البرلمان الحر إن على المؤتمر بعد أن يتلقى الرسائل أن يترك أمر توزيعها لهيئة البريد لأن هذا هو اختصاصها الذى كفله (أو حدده) لها الدستور، وهذا تعدٍ على الاختصاصات، وإذا لم تكن تصدقنى فجرب!.

❑

الرفاهية عند الأمريكان لا حد لها على الإطلاق، كل شيء هنا ليس مسخراً لراحة المواطن، ولكن لرفاهية المواطن، ومعظم الشكوى التى نستمع إليها هنا والمشكلات التى يقال إن أمريكا تعانى منها هى مشكلة الرفاهية إذا اعتورها أى انتقاص. بعبارة أهل الحساب إذا نقصت الرفاهية من ٥٠٠٪ إلى ٤٩٣٪، وهذه هى الحقيقة.

هل تذكر أى مكوجى تمر عليه فى أحد أحياء القاهرة أو الإسكندرية الراقية جداً، تدبر من اليوم الطريقة التى يليّن بها الثياب قبل أن يكويها، أليست هى الماء يرشه من فمه؟ أو إذا أصابه شيء من التكنولوجيا جاء ببخاخة يملؤها بالماء ويستعملها من حين لآخر.. ولكن الأمر فى أمريكا المرفهة يختلف، هل تعرف عبوات الروائح (أو البيرسول) التى تضغط على زر فى أعلاها فينبعث منه السائل أو الغاز؟.. نفس الأمر هنا بالنسبة للسائل المعطر الذى ترشه على الملابس قبل أن تمر عليها بالمكوى! عبوات مخصوصة من الماء المعطر أو قد يكون شيئاً غير الماء. فلنقل السائل المعطر.. تسأل كم ثمن العبوة التى تبلغ نصف لتر؟.. حوالى دولارين (فقط)!!.

❑

الأتوبيسات التى تعمل داخل المدن هنا مرتفعة الثمن إلى حد بعيد، خمسة وسبعون سنتاً للأتوبيس فى نيويورك وفيلادلفيا، تنخفض إلى ستين سنتاً فى لوس أنجليس

وبعض بلاد كاليفورنيا.. أى حوالى تسعين قرشاً (بسعر الصرف فى ١٩٨٣) للمحطة أو للمحطتين.. ولكن على اليد الأخرى: الأتوبيس مكيف تماماً.. مهيأ تماماً. مرفه تماماً. على اتصال لاسلكى بقاعدته. ولكن ما ينبغى أن نشيد به فى أمر هذه الأتوبيسات بالنسبة لمثيلتها فى أوربا أمران:

الأول: أنك تستطيع فى بعض الأوقات أن تأخذ الأتوبيس من أى ناصية، على حين أنه من المستحيل فى باريس مثلاً أن تأخذه من محطته بعد أن يغلق أبوابه! وهو لا يزال واقفاً فى المحطة بحكم الإشارة القريبة مثلاً!!.

والأمر الثانى: أنك لست فى حاجة إلى أن تشترى التذكرة قبل أن تركب الأتوبيس ولا أن تغير نقودك لتجهز عملات معدنية، فالماكينة بجوار السائق تفعل كل ذلك برشاقة.

على ذكر الماكينات الرشيقة لابد أن أشير إلى الماكينة التى (تفك) لك الدولار الورق إلى ثلاثة أرباع وثلاث خمسات سينتات وعشرة سينتات، تضع لها الدولار فتسحبه وتخرج لك أجزاءه السبعة بهذا التصنيف الذى ذكرته من الناحية الأخرى..

والماكينة الضخمة التى تحتوى أربعين صنفاً من التسالى (الوجبات الخفيفة) متاحة فى كل مكان وقادرة على استقبال أو تقبل العملات الورقية، وما عليك إلا أن تختار فيخرج لك الشىء الذى اخترته وتخرج لك باقى النقود من العملات المعدنية.. وهكذا..

ولست مبهوراً بهذه الماكينات جميعاً لأنها تقوم على فكرة علمية أصبحت فى متناول طلابنا فى المرحلة الثانوية (دراسة وتطبيقاً لو أرادوا) ولكن الذى أحب أن أشيد

به هو استغلال الفكرة فى كل منحى من مناحى الحياة على أوسع نطاق توفيراً لليد العاملة حسب ما يقولون، ولكن الأهم فى رأيى هو **إراحة البشر من البشر!.**

❑

ولكن هل تحتاج أمريكا وأوربا اليوم إلى توفير اليد العاملة؟ وهى التى تعانى من البطالة! التى تزداد معدلاتها يوماً بعد يوم؟

هذا سؤال اقتصادى صعب! ولكن لن يضيرنا شىء إذا ما أخذنا نفكر فى أمره على طريقة أهل السبهللة! أى بعبارة تقول لك لماذا لا نشغل هؤلاء العاطلين بدل هذه الماكينات؟، إذاً فيجب أن نناقش فكرتهم: كم تكلفنا الماكينة للقيام بهذا العمل فى الشهر واضعين فى الاعتبار ثلاثة عناصر من عناصر التكاليف هى (الاستهلاك - التأمين ضد المخاطر جميعاً - الصيانة) طبعاً هذا بالإضافة إلى التشغيل.. فهل يكفى هذا ليكون دخل فرد من أفراد المجتمع الذين يعانون من البطالة؟ هذا هو السؤال الصعب؟ لأن إجابته سهلة جداً وهى أنه لا يكفى ليكون عُشر الدخل الذى يحصل عليه المواطن العاطل تحت شعار التأمين ضد البطالة!..

ولكن بعض دول العالم الثالث لا تزال تؤمن أن شيئاً خير من لا شىء، وهم يظنون أن تشغيل المواطن فى هذه الأعمال التى لا تثمر خير من تشغيل الماكينات، مع أن تشغيل الماكينات فى النهاية أجدى على الدخل القومى، ولكن الدخل القومى لا يتحمل أن يُصرف للعاطلين، والجو السياسى لا يحتمل أن يتركهم جوعى إلى الدرجة التى تشعل نار بطونهم بالثورة والقلاقل، وإذاً فالحل كما رأيت بعينى رأسى فى ثلاث من هذه الدول النامية أن تجد مواطنين كل حياتهم تعتمد على قدر من المال قد يبلغ خمسة دولارات هو كل أصوله الثابتة ورأس المال العامل.. أى أن تجد بائع الفول السودانى أمامه قصاصات من الورق يعمل منها القراطيس وأمامه كم من الفول

السودانى يبيع منه بالخمسة قروش والعشرة طوال النهار لمائة مواطن وليس عليه إلا ينتظر المشترى كل عشر دقائق، فيلف له القرطاس فى حركة رتيبة ويكيل له مقداراً. ثم يأخذ النقود يقبلها من ناحيتيها.. وهكذا.. إلخ.

والسؤال السهل بعد ذلك هل هذا هو التشغيل؟ أم هو إهدار الطاقة العاملة!

لاشك أن النظام الاقتصادى الدولى قد أصبح فى مأزق!، ولكن المرء يجد نفسه يحاول أن يؤمن بأن خمسين فى المائة خير من لا شىء، ولكن خمسة فى المائة ليست خيراً من لا شىء على الإطلاق!.

❑

لم أكن أظن أنى سأرى مدينة أمريكية على هذا القدر من.. الذى رأيت عليه مدينة نيويورك.. المهملات تملأ الشوارع، صحيح أن صناديقها كثيرة بل أكثر من أى صناديق فى أية مدينة أخرى ولكن البشر أكثر، والحركة لا تنقطع، والناس يندفعون إلى حركتهم لا توقفهم الإشارات، إنما كسرها هو القاعدة، فإذا اتبعوها فإن البشر يسيرون عندما يظهر اللون الأصفر، وينهون سيرهم قبل أن يظهر لهم اللون الأخضر.. وهكذا السيارات.. الكل فى تحفز.. وإذا كان الكل فى تحفز، والكل يسبق حدوده فإن النظام يبقى أيضاً.. مثل ذلك كالرواتب الشهرية إذا صرفتها يوم ٢٨ بدلاً من يوم ٣٠.. يأتى الشهر التالى فلا يكون فى وسعك أن تنتظر حتى ٣٠، ولا حتى ٢٨ وإنما تتطلع إلى ٢٧ أو ٢٦ وهكذا.. وهذه هى حقيقة الأمر فى أمر المرور فى نيويورك.. إنما يستاء من كل ذلك مَنْ كان مثلى يعانى من ساقه فلا يستطيع أن يجارى الناس فى هذا الاندفاع.. ولكنه يضطر لمجاراتهم فيصاب بالشد العضلى أكثر من مرة.. ولا يفتأ يستريح حتى يصاب به مرة أخرى.

❑

منظر لطيف لا يستطيع الإنسان أن ينساه حين يجد هذه الصفوف من الكراسى الخشبية التى تقع إلى الواجهة الشرقية من مكتبة نيويورك. صفوف مسرح يعلو الصف التالى عن الصف السابق له، وهى صفوف طويلة تتيح للمارة أن يجلسوا إليها أو عليها يلتقطون أنفاسهم ويتأملون بعيونهم الناحية الأخرى من الشارع الواسع الفسيح، أو يتأملون الحركة السريعة المتوالية فى هذا الشارع الواسع الفسيح، أو يلتهمون (لأن الأمور كلها تسير فى سرعة) ما فى أيديهم من طعام أو شراب إلا الآيس كريم فلابد لهم أن يتمهلوا وهم يلتهمونه.

❑

مركز اللقاءات فى نيويورك فى ميدان كولومبس مفخرة بلاشك للمدينة، ولإدراتها ولإدارته، ولهم أن يفخروا بهذا الطاقم الذى يعمل فيه، والذى يلبى طلب كل طالب بالتليفون أو بنفسه فى دقيقة واحدة: سرعة فى الفهم!!، سرعة فى الإنجاز!! قنوات ميسرة جاهزة، تسأل أين فندق كذا؟، فيعطونك قائمة بالفنادق كلها وكل عناوينها وأسعارها.

كل شىء متاح، معلومات سياحية واقتصادية وعلمية، كل ذلك يسجل فى قناة من التواضع المشوب بالاحترام لأن العلم لا يجرى فى العالى..

قائمة الخريف تشمل المؤتمرات والمعارض الفنية والحفلات الموسيقية والمناسبات الإقليمية والمباريات الرياضية.. إلخ، كل الأحداث معاً ببنط رفيع فى ملزمة أنيقة صغيرة الحجم..

ليست هناك أسرار عسكرية عند هؤلاء القوم..

ومع هذا فلا يستطيع أحد أن يصل إلى أسرارهم العسكرية.

❑

فى واشنطون كان علىّ أن ألتقى بأحد الموظفين فى وزارة الخارجية الأمريكية وهو المسئول عن مشاريع البيئة فى بعض مناطق الشرق الأوسط، الترجمة الحرفية لاسم وزارة الخارجية فى الولايات المتحدة Department of State: «قسم الدولة»، بالتليفون قال لى: إن الأقرب أن أدخل من مدخل شارع C، وحين دخلت وقابلت موظفى الاستعلامات لم تمض دقيقة حتى كانوا قد اتصلوا به وتأكدوا من الموعد.

فوجدت بموظفى الاستعلامات يعطوننى خريطة المبنى كله، واضحة المعالم إلى حد مذهل، كل حجرة وكل ركن، بأرقام الحجرات، ومواضع المصاعد، ودورات المياه.. إلخ، ولم يطلب أحد منى هذه الخريطة بعد أن انتهيت من المقابلة... هل هذا هبل أو عبط أو إغراء؟ بالطبع لا. لأن الحماية محفوظة، والأمن لا يتأتى بالتجهيل والتعتيم، ولكن له وسائله التكنولوجية والعلمية والإستراتيجية..

ولكن اسأل عندنا عن خريطة مبنى مجمع التحرير الذى يضم مصالح من كل وزارات مصر لا علاقة لها ببعضها، هل تجد هذه الخريطة؟.. ولن تجدها ... إلا بعد أن ينصلح حال العقليات الإدارية عندنا!.. لا تستطيع أن تجد خريطة مبنى فى مصر إلا فى رأس عماله القدامى.

أذكر عندما كنت مبتدئاً ولم أتصل بحقائق الحياة بعد، أنى كنت فى مبنى من المبانى المحترمة فى كلية الطب بجامعة القاهرة، وجاء السباك يريد أن يصلح واحدة من المواسير الداخلية التى أصابها عطب ظهر أثره بطريقة مقلقة للراحة، فوقفت معه، فلمست أنه لا يدرى من أمر المواسير وأصلها وفصلها ومن أين تأتى وأين تصب وأين محابسها، وكيف أنه لو قفل هذا المحبس .. ماذا يتأثر.. إلخ، لا يدرى شيئاً، وفوجئت به يعتذر بأن هذا هو أسبوعه الأول.. وكان فيما يبدو قد عُين بالواسطة ليأخذ درجة العامل الفنى الخالية عادة فى مصالحنا.. بينما لا توجد له درجة بين عمال الخدمات

المعاونة، ثرت فى وجه العامل الشاب ونصحته أن يذهب فيحضر خريطة السباكة الخاصة بالمبنى قبل أن يبدأ فى أى عمل.

وجاء زملائى، وكنا أيامها ندرس علوم التشريح فضحكوا علّى وظلوا يضحكون لمدة أسبوع، كنت أظنهم يقسون فى الحكم على بلدهم التى قالوا إنه ليس فيها خريطة واحدة مما أقول عنه..

ولكن ثبت لى بعد ذلك حين توالت حوادث المواسير فى شوارعنا الكبرى أنى لم أكن أفهم - ولعلى مازلت - فى تشريح الحياة المصرية.

❑

الازدحام فى مدينة نيويورك يفرض أن يكون هناك نظام، حتى لو تحول هذا النظام إلى شىء ثقيل من الناحية الذوقية، ولكنه على كل حال أخف من أن يفاجأ الجمهور بالازدحام الذى يكون مثلا فى شركة مصر للطيران فى شارع سليمان أو فى شارع عدلى.. حين قصدت الخطوط الجوية البريطانية وأخذت مقعدى فى الصالون، جاءت إلىّ إحدى الموظفات وطلبت إلى أن آخذ نمرة! قلت من أين؟ فأشارت إلى ماكينة؟ كان رقمى ٧٢، وكان الرقم الذى يخدمنه ٦٥ وكن ثلاث موظفات، ربع ساعة أو أكثر حتى جاء دورى.. ولكن كان الله فى عون مَنْ انتظرونى، فعندما انتهيت وخلا مكانى كان هذا المكان من دور رقم ٧٩.

وبينما كنت أنتظر فى شركة الطيران هذه، دخل رجل يلبس لباساً غريباً هو خليط من أزياء كل بلاد العالم، إنما يظهر من هذا الزى كله شيئان مميزان، هما هذه الطاقية (أو غطاء الرأس) الخضراء التى عممت رأسه على نحو ما يفعله فى بلادنا مَنْ يزعمون الانتساب إلى رسول الله ﷺ، ومع الطاقية لحية كثيفة!!. والشىء الثانى كان علم بريطانيا العظمى وقد اتخذه كإزار فوق كل ملابسه التى تغطى الجزء الأعلى من

جسمه، وقد أخذ هذا الدرويش ينظر فى المطبوعات الموضوعة للتوزيع، ويقلب فى كل واحدة، ثم يأخذ نسخة من كل واحدة منها فيضعها فى حقيبة علقها بيده، وطوال الوقت كانت تصدر عنه أصوات وأقوال وأغان وأهازيج كعادة بعض الدراويش. اقترب منى أكثر من مرة فأصابتنى الرعشة.. بقدر ما كنت مشوقاً إلى معرفة حقيقة هذا الدرويش بقدر ما كنت خائفاً أن يصيبنى منه ضرر.. ثم إنه ذهب لأمره من دون أن يقضى حاجته.. هل دخل ليجمع هذه المطبوعات فقط.

ناديت أحد رجال الأمن فى الشركة وسألته فوجدته أكثر منى جهلاً.. وإن لم يكن أكثر خوفاً لأن نيويورك هى بلد العجائب فى العالم الجديد كالقاهرة المحروسة فى دنيانا القديمة.

❑

كانوا يقولون إن الإنجليز يسبقون الأمريكان فى روح الحضارة بخطوات واسعة حتى لو سبقهم الأمريكان فى مظاهرها بأوسع الخطوات، قد لا يكون التدليل على صحة هذا القول أو عدمه بالأمر الذى يتأتى للكاتب فى فقرة واحدة، ولكن خذ فى رصيدك فى جانب الإنجليز هذه النقطة، ألا ترى أنى حكيت لك عن الطابور فى شركة الطيران الإنجليزية وكيف تأخذ الدور، ثم تنتظر أن يظهر رقمك على الشاشة لتنصرف إلى مَنْ يتولى أمرك.. ماذا تفعل شركة الخطوط الجوية العالمية (TWA) فى مقابل هذا.. ازدحام، موظفة واقفة معها ورقة وقلم تأخذ اسمك وطبعاً لن تستطيع كتابة الكثير من الأسماء للوهلة الأولى لأن هناك كثيرا من الأجانب، بل لأن نيويورك بلد الأجانب، ولأن الذين يأتون شركة الطيران هم الأجانب جداً الذين سيتركون نيويورك بالطائرة.. وهى تأخذ الأسماء وتسجلها ثم تنادى، وكثيراً ما تخطىء، والأدهى أنك لن تذهب إليها فى أول دخولك لأن أمامها زحام دائماً، ومالك أنت

والزحام، وهناك شبابيك خالية ومع هذا كله يأتى مدير.. فينادى ويقول: هل هناك أحد ممن فى الكشف يريد خدمات عاجلة (كختم التذكرة لتحويلها إلى شركة أخرى مثلاً) فيقوم إليه البعض فينظمهم ثم يأخذ فى أمر صرفهم بالحق وبالباطل.. هل تأخذ هذه النقطة فى صف الإنجيز؟. أما أنا فقد استفدت من حركة المدير الكبير لأنى عرضت حاجتى فى تغيير موعد سفرى بسرعة وانصرفت مبكراً.

❑

حين زرت مبنى الأمم المتحدة وجدتهم قد جهزوا الطرقات الواسعة فى المبنى الفخم لتحتلها المكاتب. طبعاً أصابهم التوسع فى الاختصاصات والمكاتب والبيروقراطية، فلم يكن بد من هذا الإجراء، ولكن هل تستطيع حقاً أن تميز أن هذه كانت فى الأصل طرقات؟ أظن أن هذا هو الجانب الأهم الذى يستدعى الفخر فى معالجتهم لهذه المشكلة.. ولكن هل تستطيع الأمم المتحدة أن تعوّد العالم على أن يحل مشاكله على هذا النحو.. ولكن مَنْ يقعد فى الطرقات؟ ومَنْ يعلق الجرس فى رقبة القط!.

مع أننا فى الولايات المتحدة (دولة المقر) إلا أننا لا نستطيع أن نغفل الإشادة بنظام الاستعلامات فى مبنى البنك الدولى فى واشنطون أو فى مبنى الأمم المتحدة فى نيويورك فإنك لا تكاد تسأل عن اسم الموظف فى هذا المبنى الواسع الأنيق أو ذاك دون أن تذكر إدارته ولا رتبته إلا وتجدهم قد أعطوك رقم تليفونه على الخط الداخلى فى دقيقة واحدة تساعدهم على ذلك القوائم الأبجدية..

اذهب، فى المقابل، إلى أى مبنى من مبانينا واسأل عن الشخص الثالث (من حيث البروتوكول) تجد العنت فإذا سألت عن الشخص العاشر وجدت العدم.

❑

لا تستطيع أن نغفل القدرات الهائلة التى تتمتع بها السكرتيرات الأمريكيات ومع هذا لا تستطيع أن ننكر أنهن يتمتعن بقدر أكبر من الغباء! كيف ذلك؟

إذا كانت الأمور تتعلق بالعمل الروتينى الذى هو فى أيديهن كل يوم وليلة فإنهن سرعان ما ينتهين منه فى صورة مشرفة أمامك، وفى رقة، وفى إتقان، وبتشطيب أمريكى على أعلى مستوى، لاحظت ذلك كثيراً، خاصة عندما تناولك الواحدة منهن بطاقة المؤتمر بعد تقديم اسمك بدقائق قليلة جداً، فتجد بطاقة أشيك ما تكون ليس فيها حرف واحد خطأ.. وتجد القدرة الهائلة إذا قدر لك وسألت عن شىء من الذى تسأل عنه كل يوم..

ولكنك إذا كسرت القاعدة وسألت عن اسم المبنى الذى يواجه مبناهم مباشرة فسوف تذهب مباشرة للغباء الرهيب.

❑

من الأمور، لا أقول العجيبة ولكن أقول التى لابد لنا فى مصر أن نحيط بها علماً، أن المرأة الأمريكية قد تتزوج فى الرابعة عشرة من عمرها! وقد وجدت أمثلة كثيرة لهذا، وصحيح أن كثيراً من هذه الزيجات تنتهى بالطلاق، ولكن الصحيح أيضاً أن قصص العشق المبكرة تنتهى، كما نعرف، بالفراق.

وكثير من السيدات هنا لا يخفين أنهن أجرين العمليات الجراحية لمنع الإنجاب، ويقلن لك ذلك فى تلقائية شديدة، قد تدهشك أو تزعجك فى المرة الأولى، ولكنك إذا ما اعتدت أن تستمع إلى مثل هذا الاعتراف أو الإخطار، وبدأت تفكر فى أن تسأل عن هدفهن من وراء هذا، وخططت أن تلقى سؤالك فجأة ودفعة واحدة لتستمع إلى السبب المباشر راعك أن تسمع منهن إيمانهن بأن الحرية خير وأولى.. عمليات ربط الأنابيب هنا منتشرة ومرغوبة.

ومن ألطف الأشياء التى رأيتها فى ندوة «الشيخوخة والتقدم التكنولوجى» تلك السيارة الكهربائية الصغيرة، مكشوفة السقف مفتوحة الجوانب التى تستعملها جامعة جنوب كاليفورنيا فى داخل الجامعة، فيما بين المبانى بعضها وبعض لنقل الخطابات، والرسائل، والمواد المطبوعة، وكثير من الاحتياجات من المخازن أو من مركز مبيعات الجامعة أو لنقل الحقائب أو الطعام أو الأفراد أنفسهم كما حدث معنا فى أول يوم حين أخذونا بها إلى ما يسمى بقرية الجامعة حيث الطعام والشراب (أكثر من عشرة مطاعم محلية) ومحلات الملابس، والحلاقة، ومراكز تصوير المستندات، والآلة الكاتبة، والطابعة، والكمبيوتر وماسح الأحذية، والمكتبات، ومخازن الأدوات الكتابية... إلخ.

أما الشىء الألطف من هذا فهو مبنى الأنشطة الطلابية..

ولا أريد أن أحدثك عن مبنى الأنشطة الطلابية واتساعه وقدرته على تسهيل كل الإمكانات لكل المواهب، وقد كنا فى مصر نحاول أن نرسى هذا المعنى، وكنا فى المدارس الثانوية النموذجية (ومنها مدرستى:مدرسة المتفوقين) نجد شبه نواة لتخصيص أماكن للنشاط، حتى إذا ذهبنا إلى الجامعة وجدنا ذلك الأسلوب ينقرض، ثم إنه اليوم قد انقرض فعلاً، ويظن بعض المصريين أن مثل هذا التمركز الذى يتاح للنشاط الطلابى قد يمثل بؤرة خطرة...

ولا أزعم أنى أستطيع أن أستعرض مالا أحب أن أجده يُقال أو يردد بيننا على أنه رأى مع احترامى لكل الآراء.. ولكن الذى يمكننى مع كثير من التجاوز أن أجزم به أن الهواء النقى فى الحجرة المغلقة ليس بأفضل من الهواء الطلق فى الطريق العام. وأن الأفكار تفقد بعضاً من عنفها عندما تنتقل من القلب إلى العقل، ثم تفقد جزءاً أكبر من هذا العنف إذا انتقلت إلى اللسان، وتفقد جزءاً أكبر إذا انتقلت إلى اليد التى تأخذ وقتاً أكبر فى التعبير من ذلك الوقت الذى يأخذه اللسان.. ثم إنها من خلال التفاعل

مع الجماعة تكتسب بعض طاقة الاحتكاك وهى طاقة فى اتجاه آخر تقلل من العنف الذى يكون فى الأفكار..

وإذاً فإن إتاحة الفرصة أمام كل الأنشطة الجامعية هو واجب الجامعة، وهو واجب الدولة وهو واجب أصحاب الفكر فى كلا المؤسستين.

ولكن جامعة الأعداد الكبيرة فى مصر لا تزال تحتاج جهداً من أجل إرساء مثل هذا المعنى وترسيخ جوانبه.

❑

تسألنى عن الطوابير التى وجدتها فى جامعة جنوب كاليفورنيا، طابور واحد، كنت حريصاً أن أعرف علام يتكالب الأمريكيون؟ ويقفون طابوراً، فوجدت أن الطابور أمام إدارة الباركنج للسيارات الخاصة لدفع الاشتراك عن شهر مقدماً لمكان معين يضع فيه الطالب سيارته فلا يخطئه.

طابور آخر تجده فى كل مبنى من مبانى هذه الجامعة، ولكنه ليس طابور أشخاص واقفين، وإنما أسماء أناس (أغلبهم انتقل إلى رحمة الله) ومؤسسات كبرى هى أسماء الأفراد والمؤسسات التى بنت هذا المبنى، أى التى دفعت تكاليف بنائه وأهدته للجامعة. هذا الطابور الطويل من مائة اسم ومن مائتين لا يخلو منه صدر مبنى من مبانى الجامعة المنتشرة هنا وهناك، وكثيراً ما يتمنى كتابنا أن يجدوا مثل هذا فى بلدنا.. ولكن المشكلة أننا مازلنا إلى اليوم لا نثق فى مقدرتنا على أن نكون هكذا.. ولو أن هذا الشعور قد اقترب من مرحلة الاختفاء.. إلا أن الجانب الآخر من المشكلة هو أن كثيراً من أصحاب المال فينا يفضلون أن ينفقوه فى الأفراح أو الليالى الملاح أو استهلاك طاقة بآلاف الكيلوات (من التى نعانى من أزمة فيها) فى إضاءة الشارع من أوله إلى آخره يوم طهور أصغر الأنجال، بينما الشارع يحتاج إلى تعبيد حتى لا تنزلق

قدم أصغر الأبناء فيه، فتنكسر ساقه، ويبقى فى المستشفى ثلاثة أسابيع، تزوره فيها وفود الأقارب والمقربين يحملون من الهدايا والطعام والفواكه ما يكفى للإنفاق على سرير جديد يضاف إلى عدد أسرة المستشفى، وفى نفس الوقت يخفف الطلب على الفاكهة (وأنواع الشيكولاتات والحلويات) فلا يكون فيها أزمة فى الاستهلاك المحلى أو يكون فيها فائض نصدره فنجلب به من العملات الصعبة ما هو كفيل بسد بعض العجز فى ميزان المدفوعات.

قضية ترشيد أنماط الاستهلاك تحتاج إلى الزمن، ولكن الوعى كفيل باختصار فترة الزمن الكافية لإثارة الإحساس بخطورة الموقف.

❑

من النادر أن تجد فى أمريكا تلك السيارات الفيات المنتشرة فى بلادنا، وطوال مدة إقامتى لم أعثر إلا على سيارتين ١٣١، واحدة فى آناهيم، والأخرى فى فيلادلفيا.. هذا مع تركيزى الشديد أملاً فى العثور على أثر لسيارات الفيات ومثيلاتها من السيارات الشعبية أو الشرقية..

ولكن الملاحظ أن السيارة الفولكس الخنفساء الصغيرة تلقى رواجاً شديداً هنا، ومن الطبيعى جداً أن تجد هذه الخنفساء على الطرق السريعة جداً تسابق السيارات الأمريكية واليابانية التى تكون فى طولها أربعة أضعاف السيارة الفولكس.. وكثيراً ما تجد هذا النوع من السيارات وقد أدخلوا عليه تعديلاً يرفع كل جسم السيارة فيما عدا الإطارات بالطبع عن الأرض حوالى ٢٠ سنتيمترا ويصبح شكلها أمامك كما لو كانت «مرفوعة على كريك» بينما هى تسير بأقصى سرعتها على هذا النحو اللطيف.. أما التعديل الأكثر طرافة فهو الذى يتيح لغطاء الموتور أن يكون أقصر من طبيعته بحيث يصبح الموتور أكثر عرضة للجو من حوله!.

أما السيارات التى تلقى رواجاً شديداً هنا فهى السيارات اليابانية، طبعاً المصنوعة على طراز الرفاهية الأمريكية طولاً وعرضاً وتكييفاً وأتوماتية لكل شيء.. ثم السيارات الألمانية أيضاً على طراز الرفاهية الأمريكية التى تتيحه المرسيدس المسحوبة الممتدة بدلا من المربعة وكذلك الـ BMW، وقد حدثتك عن الفولكس الصغيرة ولكن هناك موديلات وأنواعاً من الفولكس الأمريكانى هنا لا تقل عن المرسيدس طولاً وعرضاً.. والأودى وما أدراك ما الأودى الخمسة آلاف (AUDI 5000) الجديدة وإعلاناتها التى لا أفتأ أراها طوال كل يوم على الطريق، وعلى صفحات المجلات.

❑

يهمنى بقدر كبير أن أحدثك عن السمنة فى أمريكا..

قد أقول لك أن إعلانات العقول الألكترونية والقضاء على السمنة هى أكثر ما يطالعك من إعلانات فى كل المجلات والصحف الأمريكية التى أتيح لى أن أشغل وقتاً طويلاً من ليلى ونهارى بمطالعتها وتصفحها.. ولكن هذا ليس هو بيت القصيد، إنما تستطيع أن تلحظ بعينك (وهذه عينة عشوائية) فى أى مدينة من المدن الأمريكية أن كثيراً من الناس يعانون أو يتمتعون بالسمنة، بل السمنة المفرطة فى نسبة كبيرة من هؤلاء..

قد يكون السؤال : كيف كان ذلك كذلك؟ ولكن السؤال الأكثر دقة أو ربما الجواب هو: ولم لا يكون ذلك كذلك؟ قوم يتمتعون بنسبة بروتين ودهون عالية جداً فى طعامهم، وأغلبيتهم الساحقة قادرة على هذا الطعام، وآباؤهم كانوا قادرين على ذلك، والتمثيل الغذائى يمضى بخطوات حثيثة، ثم هم يحبون الحلوى ويكثرون من النشويات، والكيك بأنواعه والبسكويت بأصنافه على موائد الإفطار والغذاء والعشاء ووجبة نصف الليل! وإذاً فلم لا تكون السمنة ؟

وعلى فرض أن بعضهم قد نظم طعامه أو امتنع عن كثير من الأصناف أو الوجبات، فإن الأكثرية ليست كذلك، ثم إن هؤلاء سيبقى لهم جسم معتدل أيضاً إن لم يكن يميل إلى الضخامة.

قد يبدو مثل هذا الكلام على عواهنه مُستنكراً ومُستغرباً من طبيب شاب من المفترض أنه يعرف الفرق بين الشحم واللحم، ويعرف أن مثل هذا التضخم فى الجسم قد لا يكون إلا دلالة مرض، نعم.. ولكن الحقيقة أن سمنة الأمريكان فى أغلبها سمنة صحة ورفاهية، وأن سعيهم للذهاب بها ليس ضجراً منها بقدر ما هو مراوحة بين الاستمتاع بالرشاقة والاستمتاع بالامتلاء وإلا لكانت السمنة الأمريكية قد انتهت منذ زمن.. إنها مشكلة من مشكلات الرفاهية الأمريكية!!.

دع عنك هذا وتأمل معى أجسام الزنوج فى لوس أنجليس وطولها فارع، قامة مديدة، عود مستقيم، جسم ممتلىء، عضلات بارزة، وأوزان ذات أوزان... ثم تأمل الزنوج فى مكان آخر من العالم: طول فارع ولكن الجلد فوق العظام.. عظام عريضة ولكنها ناتئة، عود مستقيم ولكنه يود لو مال إلى الأمام، العظام هى البارزة لا العضلات.. وأوزان بلا أوزان.

وإذاً يحسن بك أن تنظر فى المسألة كلها من منظور اسمه «التغذية».

❑

أحدثك عن حادث وقع لذلك الأتوبيس فى لوس أنجليس، فوجىء السائق بعربة أمريكانى تعبر الشارع وهى تكسر الإشارة، ولم يكن بد من أن يصطدم بها، فاصطدم فأصاب مقدمتها كلها بتلفيات شديدة، ولم تحدث خسائر فى الأرواح، وحاذى السائق بسيارته الجانب الأيمن ووقف، وخاف بعض الركاب من ضياع الوقت أو من الذهاب للبوليس فهرعوا إلى ترك الأتوبيس، والأتوبيس بالطبع ليس فيه إلا سائقه الذى يقوم بعمل الكمسارى (والمفتش أيضاً)..

وجدت السائق فى هدوء أعصاب يخرج مجموعة من الكروت المطبوعة. هذه الكروت فيها إقرار يوقعه كل راكب بأنه مستعد للشهادة فى حادث الأتوبيس، ويوقع المواطن ويسجل اسمه وعنوانه، هب أن الركاب ليس معهم أقلام، طبعاً الشركة وضعت هذا فى حسابها، ووجدت السائق بعد أن وزع الكروت، يوزع أقلاماً من الرصاص، قصيرة، هل ينتجون هذه الأقلام القصيرة فى أمريكا، تأملت فوجدت الحروف الأولى من اسم شركة الأتوبيس (RTD) على القلم، إذاً هى أقلام أعدتها الشركة لمثل هذا الغرض.

انتهى الرجل من جمع الأقلام والكروت، وجاء البوليس، فعاين الإصابات وعاد السائق وذهبنا لحالنا، كنت قد طلبت إليه أن يخبرنى عندما يأتى إلى المحطة التى سأغير فيها الأتوبيس وآخذ أتوبيساً آخر، فوعدنى، وأكد أنه لن ينسى، وكنت زيادة فى الاحتياط أجلس وراءه مباشرة، ثم جاءنى إحساس أنه ربما بعد هذا الحادث قد ينسى فذكرته، فابتسم، ومرت المحطات، ثم جاءنى الإحساس فقلت له يا سيدى أرجو ألا تنسى، فقال لقد نسيت بالفعل، إنها المحطة التى مضت، واعتذر، ونزلت وكانت على رأس طريق سريع يموج بالحركة السريعة من السيارات (الطائرة) ولكنه يخلو من حركة المشاة إلا من هولاء الزنوج الذين أوقفوا سياراتهم، وخرج منها بعضهم، وبقى البعض الآخر فيها، اعترانى شعور بالخوف، رغم أننا كنا ما نزال فى أول الليل، والشمس قد أخذت طريقها للغروب منذ دقائق فقط، ما إن جاء الأتوبيس التالى حتى ركبته من دون أن أسأل، وأنا أعرف أنه ليس أتوبيسى، ولكن كان لابد لى أن استقل أول أتوبيس يأتى لأنتقل من هذه المحطة الموحشة!!.

فى الغالب سوف تكون المحطة التالية مشتركة مع مسار أتوبيسى أيضاً لأنه ما دام يقف هنا وليس هناك مفارق حتى المحطة التالية فلابد أنه سيقف هناك.. وسألت

الرجل هل هذا الأتوبيس إلى هيلتون الجامعة.. قال لا، قلت وماذا آخذ قال رقم كذا قلت هل أستطيع أن آخذه من المحطة التالية قال: بكل تأكيد.. ياما أنت كريم يارب.

وصلت، هيلتون الجامعة عن بعد، والجامعة عن بعد أيضاً.. سكون فى سكون، ظلام فى ظلام، ليس هناك أحد يطبخ الآن فى مطابخ سكن الجامعة حتى تسمع أصوات أدوات الطعام أو كراسى المائدة، وليس هناك حتى مَنْ يحيك الثياب فتسمع رنة الإبرة، ليس هناك إلا الصمت المطبق إلا من هدير أصوات العربات ... لا بل من أصوات احتكاك العربات بالهواء.

❑

وجهت إلينا الدعوة فى ندوة الشيخوخة والتقدم التكنولوجى لزيارة مصانع هيوج للطائرات العملاقة وتقع فى السيكوندو بالقرب من لوس أنجليس، وذهبنا فوجدنا فى استقبالنا بطاقة أمن معدة خصيصاً باسم كل منا، حتى الأثنين اللذين أبلغا عن عزمهما على الارتباط بالرحلة متأخراً (وكنت أحدهما) كانت هناك لهما بطاقتان خاليتان، وطُلبا ليستوفيا استمارتين كانتا قد أعدتا لهذا الغرض. وكان الباقون قد أتموا ذلك بالأمس.

رافقنا رجل الأمن، وكان لا يفتأ يعدنا، وفى أول مرة وجدناه يقول: العدد ناقص واحداً، وكان هذا الواحد عالماً من أمريكا الجنوبية سوف يحضر بالتاكسى بعد أن يقضى مشواراً فى وسط البلد.. تأمل أخذهم الأمور مأخذ الجد.. لو كان هذا فى الدول النامية لسعد بالنقصان وقال إنه لا يمثل مشكلة، إنما المشكلة فى أن يزداد العدد مع أن النقصان فى واقع الأمر أخطر!.

❑

لم يتح لنا أن نشاهد شيئاً حقيقياً فى مصانع الطائرات العملاقة، إنما هم يأخذوننا من وراء الحجرات الزجاجية ومن أمامها يشيرون إلى الكمبيوترات التى تتولى تنظيم العمل فى تحكم ذاتى، ووراء الكمبيوترات كمبيوترات، وهكذا سلسلة من التحكم الآلى عن بعد، وأنت تسير وراء المرشدين (قسمونا ثلاث مجموعات) هذا الكمبيوتر هو الذى...، وهذا هو الذى....، ولا فرق ظاهر أمام عينيك لأن كلها آلات حاسبة أو متحكمة من وراء زجاج ولها كلها نفس الشكل الخارجى وإن اختلفت برامجها وشاشاتها وما على شاشاتها.. فإذا سئمت من هذه السلسلة فلا مفر لك لأنك لا تستطيع أن تغادر قصر التيه منفرّداً، ولا مستقلاً، منفرداً فتدخل فى مشكلات الأمن! ومستقلاً فتتوه ! وما عليك إلا بالصبر حتى الفرج.

❑

فى أثناء مؤتمر الجمعية السيكولوجية الأمريكية، وأنا أتأهب للذهاب من ماريوت إلى الهيلتون، فوجئت بسيدة - لم تكن تحمل بادج المؤتمر - تسألنى - على اعتبار أنى أحمل حقيبة المؤتمر فأفهم فى شئون المؤتمر أكثر منها - عن قاعة ما فى الهيلتون، وأين الهيلتون، قلت لها إنى أعرف الهيلتون! ولكنى لا أعرف بالضبط هذه القاعة! وأردفت أسألها عما يهمها فى هذه القاعة فأخبرتنى أن هناك الأستاذ (س) وأنه سيلقى محاضرة عامة فى الساعة السادسة أى بعد دقائق.. وأنها مهتمة بحضور هذه المحاضرة، وأثنت على الأستاذ ثناءً عطراً، لم يكن قد عاد أمامى فى هذا اليوم إلا بعض النذر اليسير من العمل، ثم تناول وجبة اليوم، فلما انتهيت من ذلك الذى كان ورائى فى الهيلتون، انصرفت إلى تلك القاعة التى ستشهد المحاضرة المذهلة التى حدثتنى عنها هذه السيدة !!

وكانت المحاضرة قد بدأت منذ نصف ساعة على الأقل فوجدت كل من فيها وقوفاً

وقد أمسكوا جميعاً كل فى يده أو بكلتا يديه ورقة صفراء، واستعدوا لترديد ما فيها وراء الأستاذ، كان كل ما فى الورقة للأسف الشديد، هو الإلحاد، فهم - هكذا تقول الورقة - لا يؤمنون بإله ولا بآلهة ولا بنبى ولا أنبياء، إنما هو ما أصابهم بخير فهو حسن ويؤمنون به، وما أصابهم بأذى فهو شر ويكفرون به... ثم تكرار لهذا المعنى فى عبارات مختلفة، كان الجمع يفوق المائة والخمسين، وقد أخذوا يرددون ما يعتقدون من وراء زعيمهم، فلما انتهوا أخذ يؤكد المعانى وهم سعداء، كنت فى آخر الصفوف فانصرفت إلى المقدمة لألمح الرجل عن قرب.. كانت سعادته بأتباعه لا تخفى البلاهة الظاهرة على وجهه، بلاهة الكفر إن جاز هذا التعبير، وأقسم بالله أنه تعبير علمى لا عاطفى.

وفى أثناء عودتى من مشاهدة وجه الرجل، قابلت السيدة فسألتها إن كانت تعتقد فيما قاله الأستاذ، فأكدت لى أنها تؤمن به تمام الإيمان، وكانت تبدو وهى تشرح لى المذهب وكأنها تظن فى نفسها القدرة على الإقناع.. بينما أنا على يقين أنها أولى أن تكون نزيلة مصحة عقلية، بدلا من أن تتولى (وهذه هى وظيفتها) إدارة قسم الصحة العقلية فى تلك المدينة الأمريكية الكبيرة المحترمة!!.

❑

هل تستطيع أن تجد تفسيراً لظاهرة كثرة الشحاذين فى مدينة نيويورك؟

هل لأنها مدينة كبيرة وهذه عادة المدن الكبيرة؟

هل لأنها مقر الأمم المتحدة وفى الأمم المتحدة كثير من الشحاذين فلابد من تمثيلهم أيضاً فى طرقات المدينة، وهذه للأسف وجهة نظر أمريكية

أم لأن فيها كثيراً من العابرين كل يوم، فهى فرصة للشحاذين، كل هذا محتمل وجائز..

ولكن السؤال الحقيقى ما هو موقف البلدية؟ والمجلس المحلى من هؤلاء القوم، هل يعتبرون ذلك سبة فى وجه نيويورك؟ أو يعتبرونه بعض الديكور فى مدينة الغرباء؟

إن الإجابة على هذا السؤال سوف تقودنا بالطبع إلى وجهة نظر فى هذه الحضارة الحاضرة.

❑

يحتاج المرء أن يجد إجابة واضحة تفسر له ظاهرة انتشار بائعى الفاكهة على كل نواصى شوارع واشنطون، لاشك فى نظافتهم ونظافة الفاكهة التى يبيعونها و لاشك فى توفر مقاييس الصحة العامة فيها، ولكن مَنْ يضمن هذا إلى الأبد؟ ولماذا هذا المنظر؟ وصحيح أن النواصى الواسعة تتسع لهم، وإنهم أفادونى إلى حد كبير فى توفير الوقت بدلاً من أضيّعه فى داخل السوبر ماركت - هذا على الرغم من ارتفاع أسعارهم بالمقارنة بأسعار السوبر ماركت الذى هو مرتفع بالنسبة للمدن الأخرى..

كل هذا صحيح ولكن ما هو الموقف الرسمى من هذه المسألة؟ وما هو موقف البرلمان المحلى؟.

❑

كل شىء هنا يحرص على أن يظهر أنه يخضع للقانون، وهم فى ذلك صادقون بنسبة كبيرة، ولكن كثرة البروباجندة من طبعهم وممارستهم اليومية، فى كل أتوبيس خط أبيض (أو أصفر) وراء السائق مباشرة على الأرض، وفى مقدمة الأتوبيس لوحة كبيرة تعلن أن «القانون الفيدرالى يحرم (يمنع) تحرك الأتوبيس إذا كان أحد الركاب واقفاً أمام هذا الخط.. هذا حرصاً على سلامة الركاب»..

وحتى الكراسة التى أكتب فيها كُتب عليها أنها من الحجم القانونى وهو ٢٨,٩ سم × ٢١,٦ سم وهذا مكتوب بالبوصات والسنتيمترات!.

❑

قبل أن أغادر فيلادلفيا، وبينما أنا فى طريقى إلى بوابات الطائرات حاصرنى إثنان من متطوعى الأعمال الخيرية (إن صح هذا التعبير فى كل كلمة من مفرداته الثلاث)، واحداً بعد الآخر، أما الأول ففتاة ضد الحرب النووية وضد الأسلحة النووية، ولا تفتأ تشرح لى دور أمريكا ودور ليبيا (ولأنى مصرى تظن أنها تدق على الأوتار الحساسة) ودور الطب ودور البيئة وأصدقاء البيئة.. أهلاً وسهلاً!.

أما الثانى فينتمى إلى إحدى جمعيات التبشير الدينية التى نشأت فى الهند، وتنشر نشاطها فى أمريكا، ومعه من المراجع ثمانية مجلدات كبيرة، أهدانى الأول، وأخذ يبشر بدعوته، وصاحبه ضجر منه، يريد أن يقول له إنه لا فائدة مع هذا لأنه مصرى مسلم! وعلى الرغم من ذكائه فى اكتشاف هذه الحقيقة إلا أنه لم يكن بالقدر من الذكاء الذى يجعلنى لا أحس أنه اكتشفها.. قبلت الكتاب، وتركت لهم عنوانى، وبضع بنسات قليلة حرصاً على ساعات طويلة قد يضطرنى إليها بكثرة كلامه!.

❑

لا تستطيع أن تنكر حب الأمريكين للدولار، هل تعرف شيئاً عن الحديث الشريف تعس عبدالدينار تعس وانتكس.. الحديث.. هم هكذا، وليس هذا هجوماً على الحضارة التى لابد أن نكن لها كل احترام وتقدير، ولكنه تسجيل لجانب منها يعتز به أصحابه، أكثر مما يهاجمه الغرباء، وقد يكون هذا الجانب من أهم الجوانب التى قامت عليها الحضارة، وهى حضارة رأسمالية.. ولكن الإنسان الشرقى مع ذلك لا يستطيع أن

يبلع بعض المواقف. وهاك أحدها: فى مكان انتظار الأتوبيس الذى يذهب المطار فى إحدى المدن وكانت تذكرته دولارين ونصفا، على حين أن التاكسى يكلف عشرة دولارات، وكانت هناك وفرة فى التاكسيات.. فأخذت نظرية العرض والطلب طريقها وعرض سائق التاكسى على سيدة واقفة أن تدفع خمسة دولارات فقط فى مقابل أن يأخذها هى وراكبا آخر بخمسة دولارات هو الآخر، ولكن السيدة رفضت مع أن الدولارين ونصفا لا تمثل شيئاً ذا قيمة فى الحياة الأمريكية، ولكن قيمتها فى الحضارة الأمريكية كبيرة جداً.

وحدث أمامى ذات مرة أن نزلت إحدى السيدات من التاكسى الذى أقلها إلى باب محطة القطار مسرعة، يبدو أنه لم يكن قد تبقى على موعد قطارها غير ثوان، فسقطت منها بعض النقود المعدنية وهى مسرعة فلم تلتفت إليها.. وكان أكبر هذه العملات بالطبع ربع دولار! ومع هذا سارع ثلاثة أو اثنان من الركاب ومثلهما من الحمالين يلتقطون هذه العملات من فوق الأرض، بشعور الذى وقعت يده على كنز.. تتأمل وتحدثك نفسك فتقول: ولم لا يكون كنزاً... أليس شيئاً جاء بلا تعب وبلا مجهود.. وبلا حرمة أو مخالفة للقانون فى نفس الوقت!!.

❑

والمهاجرون - المصريون أو غير المصريين يعيشون نفس الأجواء التى يعيشها الأمريكيون بالنسبة لتقدير قيمة الولايات المختلفة من حيث الغنى والفقر، فولايات الشرق فقيرة بالنسبة إلى ولايات الغرب، والأفقر ولايات الجنوب، ولهذا فإن السعيد هو مَنْ تقوده خطواته إلى كاليفورنيا مثلاً على حين أن الذين يبدءون بكارولينا أو جورجيا يظلون يتطلعون إلى الهجرة إلى الغرب، وقد تتصور أن مثل هذه الهجرة قد تكون بالأمر السهل اليسير، وهم فى بلد واحد، ولكنك قد تعجب عندما تعلم أن هذه

تحتاج خطوات كبرى، فالمسافة نفسها تحتاج ثلاثة أيام على الأقل بالقطار أو أربع ساعات على الأقل فى الطائرات!

وليس هذا بغريب فالمسافة بين الغنى والفقر بلاشك طويلة!!.

على أن الذين بدءوا بولاية فقيرة لا يندمون، فلابد لك من وقت تقضيه مع المجتمع الأمريكى تأخذ فيه الخبرة به، والخبرة التى تنفق عليها فى بلد فقير أرخص من تلك التى تنفق عليها فى بلد غنى.

❑

مما يؤرق المهاجرين المصريين، أو بعبارة أدق : المهاجرات المسيحيات منهم، قضية الأحوال الشخصية، فالزوج فى استطاعته أن ينفصل وأن يتزوج بأخرى أو أن تكون له علاقة زوجية بصورة أو بأخرى مع أخرى أو أخريات، ولكن تبقى الزوجة بحكم المذهب المسيحى فى مصر على ذمة زوجها، ولا يصح لها إذا أرادت ألا تحل عليها اللعنة أن تخرج عن هذا الإطار..

وحدث أن ترك أحد هؤلاء زوجته، وارتبط بصينية، وترك أولاده، وعاد الابن الأكبر إلى مصر، وكان طالب طب فى الولايات المتحدة، وهو وضع اجتماعى وعلمى ممتاز بل مرموق، عاد الابن فى إجازة، ثم رجع فوجد أحوال أمه تسير من سيىء إلى أسوأ، واضطربت نفسيته، وقادة ذلك إلى الانتحار، ودخلت أمه بعدها مستشفى الأمراض العقلية فى إحدى كبريات المدن الأمريكية.. وغير ذلك كثير.

❑

على باب مطار فيلادلفيا وجدت بعض العمال بزى شركة الطيران ومعهم بعض الحاملات، ظننتهم يساعدون فى نقل الحقائب إلى الداخل حيث الفحص ولكنى بعد

تأمل وجدت طرف سير كهربائى من الذى تُحمل عليه الحقائب، ووجدتهم يضعون عليه حقائب أحد المسافرين، سألتهم هل من الممكن أن أسلم حقيبتين لى من هنا، قالوا نعم، وكانتا حقيبتين ستنتقلان بين طائرات ثلاث إلى نيويورك ثم إلى مدريد ثم إلى روما، وعند الرجل بطاقات ذات ثلاث رحلات لمثل هذا النوع من السفر، أحضرها وكتب عليها أرقام الرحلات الثلاث، وأعطانى صورة، دبسها فى تذكرتى، وذهبت الحقيبة!

ودخلت المطار وأنا أكثر ما أكون تقديراً لهذه العقلية العملية الذكية التى توفر وقت الناس ووقت موظفى الشركة والتى تعالج المشكلات من أول خطوة، لا تنتظر عند موظف الحجز وأمام الكمبيوتر وعند تحديد المقعد... إلخ، وفى نفس الوقت توفر الوقت لعملية شحن هذه الحقائب فى جسم الطائرة، وهى العملية التى تحتاج إلى تبكير، ويكون التبكير فيها مفيداً إلى حد كبير.

وعند الموظف الذى يتولى تحديد المقاعد على متن الطائرة وتسجيلها على الكمبيوتر وجدت بعض الناس لا يزالون يحملون حقائبهم يسلمونها عنده، فعجبت، وحدثته عن طريقتهم التى كنت قد اكتشفتها وجمالها، فشكر لى شعورى، وسألته عن هؤلاء الذين لا يفيدون من مثل هذا التيسير ففهمت من حديثه المهذب أن هؤلاء يمثلون العقلية القديمة.. ولكن شركة الطيران العالمية لا تزال أيضاً تقبل الحقائب هنا.. وهذه هى عظمة النظم الجميلة المستحدثة.. لا يجبر أصحابها الناس على اتباعها بالشدة ولا حتى بالتعليمات البسيطة، وإنما يتركون الناس ينصرفون من أنفسهم إلى كل مستحدث لخدمتهم وتوفير وقتهم، حتى إذا صار معظم الناس إلى النظام الجديد تحللوا من القديم بهدوء.

❑

من الملاحظات التى يجدر بنا أن نسجلها أن الأمريكان يحملون كثيراً فى إيديهم فى الرحلات الداخلية (وحتى المشايات)، وشركات الطيران لا تعارضهم فى هذا، لأن الفراغ متاح، والحقائب نفسها مصنعة فى حجم الفراغات، والرحلات قصيرة، والمطارات بعيدة عن المدن، ومن غير المعقول أن تطالب هؤلاء الركاب الأفاضل بأن يضيعوا وقتاً آخر فى انتظار الحقائب وتسلمها (مع أنه لا يأخذ وقتاً على الإطلاق)..

ومما حرصت عليه شركات الطائرات فى داخل أمريكا أن تخصص مكان صف كامل من كراسى الطائرة كدولاب بارتفاع الطائرة يعلق فيه الركاب تلك الحقائب ذات الشماعات التى تحافظ على معاطفهم وحلاتهم كما خرجت من تحت المكواة، وهكذا يمكن لك أن تعلق فيه حلتك على شماعة أنيقة وأنت داخل وتجلس مستريحاً مسترخياً فإذا خرجت من الطائرة عاودت ارتدائها.

❑

كثيراً ما نسمع عن الإنجليزى الأمريكانى، يتعلل به البعض فى النطق من أنه ينطق أو يكتب على النمط الأمريكانى لا النمط الإنجليزى، ولكن الحال حقيقة فى الولايات المتحدة أن هناك كثيراً من المفردات اللغوية تختلف بين الإنجليز والأمريكان.. والأمثلة على هذا كثيرة جداً.. من هذه الاختلافات ما نتبع فيه نحن المصريين الأمريكان كالبالكون (وهو عند الإنجليز جاليرى) والحمام Bathroom وهو عند الإنجليز Lavatory وعلى حين يطلق الإنجليز على شقة السكن كلمة Flat فإن الأمريكان يفضلون Apatrment ويستخدم الإنجليزى كلمة Cookies بدلاً من Biscuites التى يستعملها الإنجليز ونجاريهم فيها.

ومن الألفاظ المستخدمة عند الأمريكان تسميتهم دورات المياه Rest Rooms وهو تقريباً نفس اللفظ العربى القديم بيت الراحة.. وعلى المحلات العامة Drug stors التى قد

توحى بأنها مخازن أدوية ... كما يفضل الأمريكان استعمال كلمة Elevator للدلالة على المصعد، وهو فى الإنجليزية Lift ... ومن العبارات الشائعة فى المجتمع الأمريكى ما يقال فى استعمال التليفون لبلاد بعيدة إنه Long distance أما الإنجليز فيستعملون نفس الكلمة التى لا نزال نستعملها حين نقول (ترنك) .... أما البريد فهو Mail بدلاً عن Post وللدلالة على حقيبة اليد (الهاندباج) Hand-bag يستعمل الأمريكان كلمة Purse .. وحين يتحدث الأمريكيون عن عربات الترام فإنهم يقولون إنها عربات الشارع Street cars وعن مترو الأنفاق إنه Subway فى حين يسميه الإنجليز Underground ويسميه الفرنساويون وبعض الإنجليز أيضاً بالأنبوبة Tube.

الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨٣



3

في تجوانا المكسيكية

فى تجوانا المكسيكية

تسألنى عن هذه الميكروفونات التى تحملها السيارات وتجرى بسرعة وببطء فى شوارع تجوانا تنادى فى شىء من الحماس.. قد تكون انتخابات محلية.. قد تكون إعلاناً عن أوكازيون هنا.. لا أدرى وقد فشلت فى العثور على إجابة من هؤلاء القوم الذين لا يتكلمون الإنجليزية على الإطلاق، إنما هى الأسبانية وكفى!.

مسكينة تلك الدولة التى تقع فيما وقعت فيه المكسيك من أزمة اقتصادية تودى بقيمة عملتها فى مقابل الدولار، أصبحت البتسا المكسيكية لا تساوى شيئاً فى مقابل الدولار الذى بوسعك أن تشترى به ١٢٠ بيتسا أو ١٣٠ أو ١٤٠، وقد حدث منذ عام أن انخفضت فيه قيمة البيتسا إلى النصف مرة واحدة!! والمأساة الحقيقية أن كل المحلات تتعامل بالعملتين البيتسا والدولار! ويستطيع كيس النقود (الخزينة التى أمام البائع العادى) أن يتقبل العملتين فى سهولة ويسر، ولكن الجانب الكوميدى فى الموضوع أن كل محل له تسعيرة مختلفة للدولار عن جاره، وهذه هى نهاية العملة الوطنية التى لا يعمل أهلها على حمايتها. الفاكهة هنا رخيصة جداً، ولك أن تفهم ذلك من أسعار الفاكهة التى اشتريتها إذا وضعت فى حسبانك أن هذه أسعار تجار تجزئة عابرين لسائح عابر.. حبة المانجو بنصف دولار، ونصف كيلو من أجود أنواع الخوخ ثلث دولار (فى أمريكا ٨٩ سنتاً فى نفس اليوم).

لوس أنجليس، ١٩٨٣

4

في مطار مدريد

فى مطار مدريد

مطار مدريد نظيف جداً، وينظف كل وقت أمام أعين الذين يمرون به، ويتم هذا التنظيف الفائق بصفة دورية وفى هدوء شديد، ولكنك مع ذلك لا تستطيع أن تغض الطرف عما تكتشفه من حقيقة أن إمكاناتهم كانت إلى فترة قريبة متواضعة فيما يبدو، وعلى سبيل المثال : يوجد فى كل دورة مياه سخان كهربائى لتسخين الماء على النحو الذى فى بيوتنا، ويبدو أن هذه السخانات رُكبت فى وقت لاحق كتعديل للمبنى الذى لم يكن فيه من الأصل نظام مركزى لتسخين المياه! كذلك فان ورق التواليت من نوع متواضع جداً ورخيص جداً قد يكون أرخص من الورق الهندى! ومع هذا كله فإن أرضية المطار تلمع من فرط النظافة بل من فرط التنظيف.

❑

الإحساس بالقومية ينعكس على اللغة وإعطائها مكانها بقدر كبير.

كافتريا المطار غالية الثمن، وتضطر للدفع على الباب.

فى السوق الحرة أنواع كثيرة من السجائر العالمية ولكنها أغلى من أى سوق حرة أخرى، وفيها سجائر أسبانية رخيصة، وأنواع كثيرة من الخمور الأسبانية معتدلة الأسعار، استبدلت قليلاً من الدولارات فى بنك عليه طابور، فوجدت من ضمن ما أعطانى الكاشير ربع ريال سعودى، فلما استفسرت منه عن السر ضحك من الخطأ الذى وقع فيه وعلى ما انتابه من توهان ضحكاً طويلاً.

البوليس الأسبانى يمر أمامك من وقت لآخر فتجد فيه معظم سمات البوليس المصرى.

التحويل من رحلة طيران إلى أخرى يتم من خلال مكتب مركزى للترانزيت تديره شركة الخطوط الجوية الأسبانية أيبريا (لصالح نفسها بالطبع).

❑

عندما وصلت إلى متن الطائرة وجدتهم يقسموننا حسب ألوان الكروت التى معنا ففى المقدمة أصحاب الكروت البرتقالى والبنى يليهم أصحاب الزرقاء والخضراء، والناس فى عجب من مثل هذا التصرف، ولكن رجال الطائرة لا يعجبون كما يعجب الناس ولا يتقبلون عجب الناس إنما هم واثقون من عدالتهم وقدراتهم على تمييز الناس من أصحاب المقاعد!!

دخلنا الطائرة فسمعنا صوت الموتور دائراً، ولمسنا بأرجلنا اهتزاز جسم الطائرة نتيجة حركة الموتور وهى حركة عنيفة.. هل كان قائد الطائرة يسخن (يحمى) الطائرة بنوع من التزيد كما نفعل حين نضغط على بدال البنزين ونزعم أننا نسّرع من تسخين السيارة!! الله أعلم، ثم كانت الطلعة..

هذه أول مرة استقل فيها طائرة يقودها طيار إيطالى لأنها طائرة أليتاليا، ها أنذا أتذكر مع أنى كنت قد نسيت هذا المعنى البسيط ولم أتذكره إلا إنى عندما وجدت

الدوشة والزيطة والحركات الكثيرة وتأملت، وسرعان ما تذكرت أن هذه أول رحلة طيران لى على شركة أليتاليا ومع الطليان.. وبدأت الدوشة الطليانية.

أخذت أشغل وقتى بتسجيل رحلات الطيران التى استمتعت بها فيما مضى من حياتى، وأعددت جدولا كتبت فيه الرحلات بداية ونهاية مع تسجيل الشركة التى أقلتنى فى كل رحلة من هذه الرحلات، واكتشفت أنى ركبت الطائرة سبعين مرة قبل هذا.. طبعا حين يكون هناك طائرتان متعاقبتان فى الرحلة الواحدة فانى أحسب كلاً منهما بمثابة رحلة..

وهكذا تجمع لدىّ رقم السبعين قبل هذه الرحلة التى استقل فيها طائرة أليطاليا لأول مرة، وأركب فيها مع طاقم إيطالى : طياراً ومضيفين ومضيفات.. وبعض ركاب كذلك!!

مدريد، ١٩٨٣



5

في إيطاليا

فى إيطاليا

تسألنى عن سر النظرة إلى الطليان على أنهم قاع السلة الأوربية، اسأل الطليان أنفسهم.

لن تستطيع أن توجه السؤال بطريقة مباشرة بالطبع، ومع هذا لن تعدم الطريقة الدبلوماسية التى تستطيع أن توجه بها مثل هذا السؤال، ولو عرف الإيطالى المسئول أنك مصرى فسوف يستغل نقطة التماثل بين مصر وإيطاليا فى قدم الحضارة وعراقتها، وأن لكل من البلدين تاريخاً قبل التاريخ، وممالك قبل الدول، وحكومات سيطرت على أجزاء هامة من العالم، وآثاراً باقية لهذه الحضارات ، ومع هذا فإن حالهما اليوم ليس على القدر الذى ينبغى أن يكون بالموازاة لهذه الحضارات.

إذا كان المسئول على قدر من الذكاء الطليانى الذى يتيح له أن يستغل مثل هذه النقطة فسوف يركز عليها بالطبع، وسوف يخرج منها إلى أن العظمة موجودة ولكن الظروف..! أى ظروف لا تعرف، ولكن أحداً لا يعدم الأعذار..!

على أن موقف الناس من هذه النقطة بالذات يختلف اختلافاً كثيراً، وأكثر الناس الذين يعتدون بعقولهم يؤمنون أن هذا هو أصدق تعبير عن العذر الذى قد يكون أقبح من الذنب، ومثل هذه الأجيال الجديدة فى رأيهم ليسوا إلا كالرماد خلفته النار، أو كالفاسد يخرج من ظهر العالم الصالح، أو كالخفين جاء بهما حنين، أو كالفأر تمخض الجمل أو أنثاه فولده بعد عناء!!

❑

ولا أظن أنك تستطيع أن تغض الطرف عن مقومات هذا الرأى من الصواب حتى وإن لم تجد فى قرارة نفسك القابلية للاقتناع به كلية.

هذا عن أكثر الناس الذين يعتدون بعقولهم، ولكن هناك طائفة من أولئك الذين يعتدون بعقولهم، اعتداداً لا يقل عن اعتداد إخوانهم السابقين ولكنهم يحبون من آن لآخر أن يفكروا بهذه العقول على طريقة الواقع، لا على طريقة المنطق، وكثيراً ما يكون فى الواقع منطق مقلوب، وهو مع هذا مقبول لأنه واقع..

ومن هؤلاء الواقعيين مَنْ لا يجد حرجاً فى أن يخلط جد الأمور ببعض الهزل فى بعض الأحيان، وخير مثل عندى لهؤلاء زميل عزيز، زاملته فى مدرسة المتفوقين الثانوية وفى قصر العينى ، وكنت آخذ بكثير من آرائه فى كثير من المواضع والموضوعات التى لم يكن يأخذ فيها بالمنطق.

كان صاحبنا هذا إذا أراد أن يشترى كتاباً من كتب الطب الخاصة بالأعوام الماضية سأل عن التقدير الذى حازه صاحب هذا الكتاب من قبل فإن كان تقدير صاحبه عالياً، ترك الكتاب وشأنه، وانصرف إلى شراء كتاب آخر لا يختلف عن الأول فى شىء إلا أن يكون تقدير صاحبه مقبولا، أو جيدا فحسب، كان صاحبى

يؤمن (ولا تدرى كيف) أن الكتاب قد استنفد غرضه مع الأول الذى حاز به التقدير العالى، أما كتاب الثانى فلا يزال فيه أمل أن يحوز به صاحبنا التقدير العالى لأن سلفه لم يحظ بهذا التقدير..

ومع هذا فإن صاحبى كان دائماً يحوز التقدير العالى رغم هذا التفكير الذى لا يظن الكثيرون أنه يرقى به إلى النجاح.

وإذاً فنحن فى أمر الطليان المحدثين أمام نظرية ثانية، قد نسميها «**نظرية الاستنفاد**» ومدلولها أن لكل شعب عصره، فإذا أخذ عصره، ولت أيامه وعاش بعد ذلك على هذا الماضى: على سمعته، أو على المال الذى يرثه عنه، أو على «الأصول الثابتة» التى تبقى بعده، أو حتى على آثار هذا الماضى، بقايا حضارات، أو شواهد قبور، وقد يُسمى هذا فى عرف البعض بالآثار ، ويُسمى الدخل الناشىء عنه بالسياحة، ولكن الذى لا شك فيه أن هذا الشعب يعيش على ماضيه.

ومن هذا النوع بين شعوب الأرض اليوم نسبة لا يستهان بها.. قد لا تعيش هذه الشعوب على ماضيها فحسب، ولكنها تصنع فى حاضرها ما تستثمر به ماضيها.

وهناك طائفة من الشعوب تعيش على هذا النحو، وجهدها فى هذا مشكور، وقد لا تعيش هذه الشعوب على ماضيها ولا على حاضرها الذى تستثمر به ماضيها فحسب، ولكنها تصنع إلى جوار ذلك حاضراً إن لم يكن من أزهى الحواضر فهو حاضر مشرف على كل حال يشارك فى صنع مستقبل قد يكون أكثر إشراقاً، وجهد هذه الشعوب مشكور بأكثر من الشكر الذى تحظى به الطائفة السابقة.

أما الطائفة الثالثة فشعب نعرفه نحن المصريين جيداً ، لأنه هو نحن ، وهو شعب لا يهتم بأن يستثمر ماضيه الكبير ولا نصفه ولا ربعه، وقد يكون لنا فى شأنه حديث آخر.

على كلٍ فإن الإيطاليين والحق يقال يبذلون جهدهم فى هذا الشأن ويبلغون به شأوا بعيداً يستحق من الثناء قدراً لا يستهان به، ولكن جهدهم فى صنع مستقبلهم وتقدير ماضيهم وحياة حاضرهم لا يزال يحتاج منا إلى شيء من التفسير الكفيل بأن يوضح لنا كيف أنه لم يبلغ الماضى، وقد عرضنا فى السطور الماضية لوجهتى نظر فى هذه القضية، ويبقى أن نعرض من خلال مشاهداتنا لوجهة نظر ثالثة.

نحن الآن فى مطار روما الدولى، أو بعبارة أدق فى الطائرة التى هبطت مطار روما الدولى، وقد أتيح لى أن أرى عجباً من هؤلاء الطليان منذ هذه اللحظة، أى منذ اللحظة الأولى ، ذلك أن ما قابلته أو ما صادفته فى مطار روما قد جاء على غير ما يتوقعه المرء فى مطار روما الدولى، الذى هو بمثابة مركز الالتقاء العالمى، مصداقاً لقولهم «كل الطرق تؤدى إلى روما».

على غير ما تتوقع فى هذا المطار فانك تجده متخلفاً تكنولوجيا إلى حد بعيد، ليس فيه على سبيل المثال أنابيب من تلك التى ينتقل فيها المرء من الطائرة إلى صالات المطار، وهو ما وجدته فى بومباى منذ أكثر من عامين، وإنما عليك أن تنزل السلم وتركب الأتوبيس.. إلخ دعنا من مثل هذا التخلف الذى يكفل الزمن تقديم بعض الحلول له ، وإنما التخلف الحقيقى الذى أعنيه هو أن يأخذ العامل الفنى للمطار وقتا طويلا فى إتمام عملية تركيب السلم إلى باب الطائرة وقد استغرق عشر دقائق من المحاولات الفاشلة أو بعبارة أدق من (الدلع) الذى لا معنى له ولا مبرر ولا طائل من ورائه.

❑

هانحن بعد هذه الدقائق التى عشناها جميعا مع قدر كبير من الضجر ننزل السلم

ونركب الأتوبيس وينتظر الأتوبيسان حتى يمتلىء كلاهما بكل الركاب ليتحركا فى وقت واحد كأنما المطلوب والمفروض أن يكون هناك ازدحام عند شبابيك الجوازات..

هذا هو جوهر الفرق بين «النظام المرن» وبين «التحكم تحت اسم النظام» وسنرى أن كل أمور الطليان تسير على هذا النحو من «**التحكم تحت اسم النظام**» وتكون النتيجة بالطبع والبداهة عكس الشعار المرفوع.

من أعجب ما رأيت أنهم فى هذا المطار يراجعون التأشيرة التى يحملها جواز السفر الخاص بك على سجلات متهرئة تبعاً لبلدك الأصلى فهم يفتحون سجل مصر، وفيه سجل قنصلية القاهرة ويبحثون فى حرف G فيجدون اسمى وأمامه التاريخ، إذاً فالتأشيرة سليمة..

ومع هذا لا يحدث العنف إلا من مطار روما!!

الحق يقال إن موظف الجوازات كان سريعاً، ولم يكن هناك طابور للطليان وآخر للأجانب، إنما يمر الكل من أمامه فيستعرض جوازاتهم فى سرعة بالغة تدل على أن روح الحضارة موجودة .... ولكن!!.

❑

فإذا انتقلت إلى حيث تتسلم حقائبك راعك أن تجد المطار خاليا من الحاملات التى تحمل عليها الحقائب، ثم إذ بك فجأة تجد الأرض وقد انشقت عن ثلاثين حاملة انصرف إليها ثلاثمائة راكب فظفر مَنْ ظفر وبقى الآخرون.

لم يكن معى لسوء حظى شيء من الليرات التى تستلزمها مصروفاتى ، وكان علىّ أن أنصرف إلى تحويل مبلغ من المال حتى أدفع للتاكسى أو الأتوبيس الذى ينقلنى

إلى وسط البلد، ووجدت عند البنك حوالى عشرة طوابير فى كل طابور أكثر من خمسين راكبا ، وفى معظم هذه الطوابير أناس كانوا معى على الطائرة الأسبانية التى جئت بها من مدريد وتأملت الشبابيك التى عليها الناس فوجدت اللافتات مختلفة، ثم وجدت شباكا خالياً من الناس ووراءه موظف، وعليه لافتة تعلن أنه مخصص لتبديل العملات الأجنبية فسعدت أيما سعادة، وتوجهت إليه، وسرعان ما ذهبت كل هذه السعادة أدراج الرياح، فقد قال لى الموظف وهو يحرك يديه فى سخرية: أمامك كل هؤلاء الناس وتتركهم يقفون كما ترى وتأتى إلىّ هنا مباشرة؟، ولاحظت أن كل الناس يستهجنون طريقته فى الحديث معى، فشجعنى هذا على أن أقول له بصوت مسموع بعد ما فهمت أنهم كلهم يبغون ما أبغى: إن شباكه هو الوحيد الذى عليه لافتة تفيد أنه مخصص لتحويل العملة، وقد تصرفت تبعاً لما فهمت، أما كونهم يخصصون الشبابيك لغير ما خصصت له، فهو إهمالهم!!، وأما الطوابير فهى دلالة على فشل البنك!!، وأما كونه يقف بلا عمل إلا السخرية من الناس المحترمين فمنتهى العبث!!، كل هذا فى إنجليزية متواضعة فيها على الأقل [وعلى الأكثر] البساطة والقدرة على الإفهام، ولم يكن أمام الموظف إلا أن يعتذر بصوت خفيض ولكنه مسموع، وأن يأتى باللافتة التى تفيد إغلاق الشباك فيضعها، وأن يكرر الاعتذار وأن ينصرف لحاله، وهذه ليست إلا صورة مصغرة معبرة عن طريقة إدارات [قادرة] على إبراز حلول وهمية للمشاكل التى خلقتها!!.

❑

الطابور أو الطوابير الأربعة طويلة، ويأخذ المسافر حوالى عشر دقائق فى كتابة استمارات، ونقل بياناته من الجوازات، وفى الطابور عرب من بلاد المغرب وآخرون ممن يعملون فيه، ولا أمل.

تسأل عن بنك آخر، فيقال لك فوق فى صالة السفر، كيف تصعد إلى فرق، ليس هناك مصعد فى مطار روما الدولى، أو هكذا قالوا، ولكننى صعدت وهناك قابلت الموظفة، ووجدتها قد جهزت خطبة تقول إنها مسئولة عن الشراء لا عن البيع!!، هى تشترى ليرات ولا تبيع!! (تصور أن يوجد هذا المنطق فى بلد يحتاج بالطبع [إذا كانت هذه سياسته] إلى كل دولار وكل إسترلينى وكل مارك وكل فرنك) وصاحبتنا تشترى الليرات ولا تبيعها! أما الذين يبيعون فهم أولئك الذين تحت، ويشرح لها الناس الموقف تحت، ولا أمل عندها، وأنا أمامها أتسلح بقوة الصمت لأنى وجدت أن قوى العقل والإقناع لا تثمر معها، وقد أفلحت قوة الصمت، فقالت لى بعد أن صرفت الناس جميعاً سأغير لك ياسيدى مائة فرنك (فقط) من هذه الفرنكات السويسرية التى معك.

إنى ذاهب من فورى ياسيدتى إلى ماراتيا.. هل تعرفين معنى أنى ذاهب إلى «ماراتيا» وما تحتاجه «ماراتيا».. المائة فرنك يا سيدتى لا تنقلنى إلى قلب روما، وأخيراً تكرمت علىّ بتحويل الفرنكات، وانصرفت بما حولت من نقود.

لا أريد أن أطيل عليك ولكنى أختصر لك مظهر الـ .. الإيطالية: فسائق الأتوبيس الذى ينقل السياح من المطار إلى وسط البلد لا يسمح للركاب بالصعود إلى الأتوبيس إلا فى آخر دقيقة حين يأتى وهو حامل مفاتيح خزانته للنظر فى التذاكر بينما الناس على الأرض، وقف أربعون على الأرض طابوراً حتى تكرم وجاء، فإذا انتهى بك الأتوبيس إلى وسط البلد، لم يتركك فى محطة القطارات فى روما وإنما تركك على رصيف يؤدى إليها بعد ٥٠٠ متر من المشى فى الزحام، هذا من باب العذاب، وعلى الرصيف عربات تستطيع أن تحمل عليها حقائبك لهذه المسافة، ولكنها فى أيدى الحمالين، وحذار أن تقترب منها، هذا هو الاحتكار! أو الاحتكار البغيض لأنهم قد

ظلموا معنى الاحتكار على ما يحوى من مساوىء، فإذا سألت عن أجرة الحمال من هؤلاء قيل لك مع التكرم: عشرة آلاف ليرة.

❑

وصلت إلى محطة روما للسكة الحديد لأواجه عناء النظر إلى شبابيك كثيرة ليس عليها إلا أرقام، وأمامها أعداد كبيرة من البشر، وقد اكتشفت بعد كثير من المحاولات أن عليك أن تعرف رقم الشباك الذى يمكنك أن تحصل منه على التذكرة إلى المحطة التى تريدها، فالشبابيك مختلفة ومرقمة من أجل هذا، وحتى تصل إلى رقم هذا الشباك، لابد أن تسأل فى الاستعلامات، والاستعلامات هى الأخرى طوابير، وشبابيك، بل أن كل شباك متخصص فى نوع من الأسئلة، وعليك أن تعرف أولاً الشباك الذى يجب أن تسأل فيه عن حاجاتك وحتى تجد من يفهم سؤالك فهذا حدث نسبة احتماله ١ : ٣٠ أيضاً لأن كثيراً (٢٩ من كل ٣٠) يفهمون السؤال بعد ما يتعبونك فى الشرح والتوضيح ثم يقولون لك بلا اكتراث: لا نعرف.. أو اسأل شباكا آخر.. بكل بساطة.

على أن المصيبة الأعظم أن تكون الإجابة التى تأتيك هى الضلال، فالضلال والفتوى بغير علم هما الأصل هنا، أما تحرى الصواب فلن تجده إلا عند ١ من كل ٣٠ يجيبون عليك وهم الذين يمثلون ١ :٣٠ من الذين يفهمون سؤالك وهم يمثلون ١ : ٣٠ من الذين يقبلون أن يحادثوك أصلاً ويتواضعون لأنهم يقولون لك إنهم يعرفون لغة غير الإيطالية.. بلغة علم الاحتمالات فإن وصولك إلى الحقيقة مع أحد الذين يقبلون محادثتك لا يزيد احتماله عن ١ : ٩٠٠ وهذا هو ما حدث بالفعل معى.. إذا لم تكن تصدقنى فاذهب إلى محطة روما..

ولكن لماذا تذهب إلى محطة روما فى قلب روما فى قلب إيطاليا، اذهب إلى الخطوط الجوية الإيطالية (أليطاليا) فى قلب القاهرة واسألهم عن أى شىء وراجع إجابتهم، هذا إذا أجابوك.. وهذا إذا فهموك، وهذا إذا استمعوا إلى سؤالك من الأصل.. ولا أظن أنى أظلمهم فى شىء، فقد ذهبت إليهم منذ شهرين أسألهم عن أقرب المطارات إلى ماراتيا، ومعلوماتى حسب ما هو مذكور فى برنامج الندوة إنها فى جنوب نابولى بحوالى مائتى كيلو متر، ونابولى إلى الجنوب من روما وإلى الشمال من الجزر الإيطالية فى البحر الأبيض، وكان ظنى أن تكون قريبة إلى إحدى هذه الجزر!!، فقالوا لا نعرف، فألححت فى أن يفتحوا الخرائط ويبحثوا.... وفى النهاية قالوا إنها بين روما وبين نابولى (يعنى شمال نابولى) كيف هذا ياعالم ؟ ... قالوا هذه هى الحقيقة. قلت هل هى أقرب إلى روما أم إلى نابولى، قالوا إنها فى النصف بالضبط وهذا ضلال فى ضلال.

❑

هدانى الله إلى الشباك، وكل ما فى وسع بائع التذاكر أن يسأل الجهاز الذى أمامه عن ثمن التذكرة ويعطيها لك، تذكرة من محطة وصول إلى محطة قيام فحسب، وعليك أنت أن تبحث عن موعد أقرب قطار، ومساره، والتغيير الذى تحتاجه من أجل إتمام الرحلة ، والرصيف الذى ستأخذ القطار من عليه ، واسم القطار ، وبوسعك أن تعرف كل هذا من خلال الخرائط أو الجداول، ولكن هذا يقتضى منك أن تكون مسلحاً بالقدرة على التعامل مع الخرائط والجدول .. وصاحبنا الذى يبيع لك التذكرة لا يعرف من أمر كل ذلك شيئاً، أو كأن وظيفته فى الروتين ألا يعرف من أمر كل ذلك شيئاً لأنه مكلف بالبيع فحسب.

وهذه هى مشكلة الروتين الحكومى الذى يرفع شعار توزيع الاختصاصات فتكون

النتيجة أن «يتوزع» الإنسان صاحب الحاجة ويتمزق! وأن ينغلق الإنسان صاحب الوظيفة ويتضاءل!.

ولعلى أقول هذا اليوم لأنى أحس أننا نوشك أن نقع فى مثل هذا الأسلوب العقيم فى تنظيم العمل، أو أننا فى سبيلنا إلى الغرق فيه، وليس فى كلامى ما يحتاج إلى شرح، وليس مرد هذا التحامل فى تحليلى إلى جهل أو عجز أو يأس وليس مرد هذا التحامل [مع حسن الظن وحسن العبارة] إلى سلوك واحد من طبقة «المرفهين» فى محطة سكة حديد!!، أقول بكل الثقة لا، فقد تعاملت (وتعامل غيرى) مع السكة الحديد فى ألمانيا الغربية وفى بريطانيا وفى الولايات المتحدة وفى الهند وفى فرنسا وحتى فى مكاتب سياحة ليست فى قلب المحطة، وكان الموظف هناك أو هنالك يعطينى استمارة فيها كل البيانات.

وعلى سبيل المثال: تركب قطار رقم (كذا) من محطة (آخن) مثلاً الساعة (كذا) من رصيف (كذا) حيث يتحرك الساعة (كذا) ويصل (كولون) الساعة (كذا) على رصيف (كذا)، وهناك يصبح عليك أن تتحرك إلى رصيف (كذا) فتأخذ القطار رقم (كذا) الذى يصل الرصيف الساعة (كذا) ويتحرك من الرصيف الساعة (كذا) فى طريقة إلى محطة المطار الدولى بفرانكفورت حيث يصل هناك الساعة (كذا) ويكون وصوله تحت النهايات (كذا) .. كل هذا مسجل لك على تذكرتك وعليها اسمك إذا أردت، تأخذها بكل هذا التفصيل الوافى بعد ما تطلبها بدقيقة أو دقيقتين، (وليس الأمر مقتصراً على الوصول إلى فرانكفورت) ولكن إذا أردت أن تخرج منها إلى أبعد مكان فى ألمانيا فستجد أيضاً الوصف الدقيق، وسيخيرك الموظف بمنتهى الهدوء بين قطار يقوم بعد ساعة ويصل بعد أربع ساعات، وبين آخر يقوم بعد ساعتين ويصل فى

ثلاث ساعات وربع. هكذا كنت أتعامل مع السكة الحديد في ألمانيا الغربية، وهكذا كنت أتعامل معها أيضا في بريطانيا.

❑

وإني لأذكر مثلاً آخر وهو أنه كان أمامي ذات مرة نوعان من التذاكر بين مانشستر ولندن، الأول هو أقل سعراً سعر الشباب وكان يكلف عشرين جنيهاً إسترلينيا مثلاً، والثاني هو الذهاب والعودة على أن يستعمل في قطارات معينة وكان يكلف ثمانية عشر جنيهاً، ورغم أني كنت أعرف أني لن أعود إلى مانشستر طيلة فترة صلاحية هذه التذكرة فقد اخترتها بناء على نصح مكتب السفر نفسه!!.

وبالإضافة إلى هذا كله فإنك إذا وصلت إلى عربة القطار المحترم في البلاد المحترمة وبالأخص القطار الألماني واسمه هناك علم كبير «الديوتش بان» فإنك واجد في كل ديوان في القطار ووراء كل مقعد جدولاً (أو خريطة) وقد رُسم فيها مسار القطار من أوله إلى آخر محطة، والبلاد التي تستطيع أن تنتقل من قطاراتها من هذه المحطة وأرقام القطارات التي تذهب إليها ومواعيدها... وهل فيها عربات للأكل وللنوم أم لا؟ وكل هذا في وضوح شديد..

ولكن الحال في روما أن هذه الجداول ليست متاحة حتى في مكتب مدير محطة روما نفسه، لأنها ربما تكون مع الحكومة المركزية! أو مع هيئة السكك الحديدية نفسها!

وقد يكون مقر هذه الهيئة قريباً من مقرات المافيا تحت الأرض الإيطالية!

وقد يكون هذا الوضع بمثابة تعبير عن الفرق الظاهر أو الفرق الكامن بين عقليتين، بين عقلية ألمانيا الغربية وبين عقلية إيطاليا.. أو كما يقول الناس بين

المرسيدس والفيات.. ولكننا لا نريد أن نذهب فى ظلم الطليان إلى هذا الحد فنقول إن هذا الوضع يمثل الفرق بين عقليتين، ولكن يكفينا أن نقول إن هذا هو الفرق بين نمطى الحياة صنعته الاختلافات بين عقليتين وحضارتين.

❑

لست فى حاجة بعد ذلك إلى أن أصور لك كيف استطعت الوصول إلى القطار الإيطالى واسمه ومواعيده، فهى سلسلة من هذا البحث عمن يفهمك، والبحث عمن يعرف بين من يفهمك، والبحث عمن يقول صواباً بين من يعرفون، وفى النهاية (الساعة السابعة إلا خمس دقائق) وصلت إلى اسم القطار وأن أقرب مواعيده فى الساعة ٨,٤٤ دقيقة على رصيف ١١ (كنت قد وصلت مطار روما الساعة الثالثة والنصف وخرجت منه حوالى الساعة الخامسة والربع ووصلت محطة القطار حوالى الساعة السادسة ودقائق)..

وقد يستكثر الناس علىّ أن أصف هذا التباطؤ على هذا النحو، ولكنى أؤكد للقارئ أنه لو كانت ماراتيا فى ألمانيا الغربية أو فى بريطانيا أو فى فرنسا أو فى الولايات المتحدة لما استغرق الأمر بين وصولى المطار ووصولى إلى محطة القطار أكثر من نصف ساعة. وحتى لوكانت فى الهند ما استغرق أكثر من ساعة لأن الهند لحسن حظها متأثرة إلى اليوم بالنظام الإنجليزى.. هل أقول: ولكن لم يكن من حظ إيطاليا أن يستعمرها الإنجليز؟

أخشى أن أقول مثل هذا فيثور علىّ أعداءُ الاستعمار.

❑

ها أنا أعود إلى نفسى، ولم أكن قد نمت منذ غادرت فيلادلفيا إلى نيويورك إلى

مـدريد إلى رومـا إلا نـوم الطائرات المتـقطـع ، وكنت أخـشى أن أذهب إلى البـوفـيـه بحقائبي، فهو بعيد، وشكله المزدحم لا يطمئن، إذاً فلأنتظر هنا.. فالقطار سيصل حتى قبل موعده بوقت كافٍ (لأن هذه هي محطته الأولى) وسوف يكون من الممكن لي أن أختار مكاني وأجلس فيه أو بعبارة أخرى أنام، والمسافة ستأخذ ٦ ـ ٨ ساعات.. كنت أظن القطار يأتي في حدود الثامنة أو بعدها بربع ساعة أو نصف، ولكن حسن حظي بعد كل هذا العناء جعلني أرفع نظري إلى لافتة الرصيف التي سمعتها كشأن تلك اللافتات وهي تتحرك، فوجدت عليها أن القطار الذي جاء لتوه (في حوالي السابعة وخمس دقائق) هو قطاري الذي يتحرك (حسب الجدول) بعد تسع وتسعين دقيقة.. يالله. ياما أنت كريم يارب!!.

❑

بكل الثقة توجهت إلى القطار، وبينما أنا صاعد سألني عامله عن وجهتي فقلت له، فأجابني أن هذا القطار لا يذهب هناك ولم أعره اهتماماً، وإنما قلت له إنني متأكد، فذهب عني ثم عاد إليَّ بعد دقائق، يعتذر أنه لم يكن في وعيه أو في رشده أو شيء من هذا، فكان هذا أول عهدي باعتذار إيطالي عن تصرف يستحق الاعتذار !!

❑

هكذا أتيح لي أن أقضي مائة دقيقة من النوم المريح في ديوان مقفول: لا ضوء ولا صوت يأتيك من هنا أو هناك لأنك أحكمت إغلاقه، وبالإضافة إلى هذا لا حركة ولا اهتزاز لأن القطار واقف في مكانه.. مائة دقيقة بعد كل هذا العناء والسفر والمشقة واليأس والأمل.. تسألني ماذا تساوي؟ أقول لك تساوي رحلة إيطاليا كلها، وكيف لا؟

والحق يقال إنني عندما تيقظت مع حركة القطار كنت أظن بعد الراحة التي

أحسستها فى جسمى أننا وصلنا ماراتيا، لأن مثل هذه الراحة لا تأتى إلا من نوم متصل على مدى ثمانى ساعات! ولكن الراحة القصيرة بعد العناء المتصل تبدو فى أثرها كالراحة الطويلة تماماً بتمام.

❑

فيما بعد، وطيلة مسيرة القطار، أخذنا نفاجأ بكل ما هو مضحك، تجد الناس يجلسون فى ديوان من القطار فى أمان الله فيأتى لهم المسئول عن القطار فى محطة من المحطات ليخرجهم من ديوانهم إلى الممر لأن الديوان محجوز من هذه المحطة إلى محطة كذا.. وهكذا..

تجد حركة كثيرة بين عربات القطار لأن هذه التذكرة تصلح هناك أى فى عربة معينة ولا تصلح هنا.. إلخ، وهكذا لايخلو الأمر من حركة وجلبة.

وكثافة الركاب إلى عدد المقاعد كبيرة حتى إنك تجد كثيراً من الناس يقفون فى الممرات أو يستعملون الكراسى التى بها مع أننا فى ساعة متأخرة، والمفروض لأن يكون القطار فيها خاوياً على كراسيه.

وفى القطار علمت أن علّى أن أنزل فى سابرى وأن آخذ قطاراً آخر إلى ماراتيا. قلت: وكم أمكث فى هذا القطار؟ قالوا ساعتين أو ثلاثا. وأكرر: قالوا بضمير الجمع لأنى على عادتى التى بدأت تنمو فى إيطاليا، أخذت فى الشك فى هؤلاء القوم سألت أكثر من واحد، وفى سابرى نزلت الساعة الثانية تماماً بعد منتصف الليل ... ولابد أن أشيد هنا بدقة المواعيد رغم كل تحاملى فيما مضى على قلة النظام الظاهر.

❑

نزلت إلى هذه المحطة فاذا أنا فى وحشة الليل وظلمته ورهبته ولولا الإيمان بالله

وبالقضاء والقدر فأنى لأستطيع أن أتصور أنك تأمن على حياتك ولا على روحك ولا على مالك!.

ولا تنقضى ربع ساعة حتى أجد سيدة تهمس من الشباك على بعد أربعة أمتار فى مواجهتى، لا أعرف إلى مَنْ تتحدث وقد ظننتها تتحدث إلى، فإذا بى أفاجأ بمن يحادثها أو من هيئ إلىّ أنه يحادثها وأنا لا أراه مع أنه معى فى الحجرة، فاعتذرت له لأنى لم أره فألقى علىّ التحية، هنا وجدت الرجل الذى يجلس فى مواجهتى ومن ورائه الشباك الذى تتحدث منه المرأة [التى يبدو أنها كانت تدبر له مؤامرة] وقد قام فزعاً يجرى وراء المرأة التى فرت هاربة، وأما الشاب الذى كان يقف بحيث لا أراه فقد انصرف بعد قليل، وهو يظهر علامات التعجب.

بقيت فى الحجرة المخصصة لاستراحة الركاب أستمع إلى شخير عال مرتفع هو أعلى من كل الخطب الحماسية التى تلقى فى النهار، لاثنين من الركاب الذين يشاركوننى الاستراحة، ساعتان وخمس دقائق على هذا النحو من القلق والاضطراب، ولا أفتأ أخرج إلى الأرصفة أسأل عن قطار ماراتيا، وفى ذهنى أو فى قلبى أنه سيكون على الرصيف قبل موعده بوقت كافٍ، على ما نحو ما كان من قطار روما، ولا فائدة، وأصبح كل رجال الشرطة الإيطالية (وكلهم ثلاثة) على رصيف محطة سابرى إذا رأونى أخرج من الاستراحة يقولون: لا، أى لم يصل، ثم جاء الخبر أنه سيتأخر نصف ساعة.. ياللحظ.. وأخيراً جاء القطار وركبته، فعلمت من ركابه أن ماراتيا هى المحطة التالية مباشرة وأن المسافة لا تزيد عن ربع ساعة فقط أو أكثر قليلاً جداً.. هذا مع أنهم قالوا إنها ساعتان أو ثلاث..

على كل حال: الحمد لله، وليت كل الضلال تكون نتيجته هكذا.. فإنها الحقيقة السهلة تهوّن الضلال المر!!.

ولكن المأساة الحقيقية تكمن فى أن تعلم بعد ذلك بيومين أن الفندق (الذى كنت تسأل عنه هؤلاء القوم والذى هو على الورق فى ماراتيا) أقرب إلى سابرى منه إلى ماراتيا وأن بينه وبين سابرى بالتاكسى ٧ دقائق وبينه وبين ماراتيا بذات التاكسى عشرون دقيقة، هذا غير ساعتى الانتظار بكل ما حملتا من اضطراب وخوف ونصف ساعة تأخير ثم ربع ساعة فى القطار.

ياللغباء! غباء مَنْ لا أدرى..

❑

على أن كل ما مر بك مما مرّ بى يهون إلى جانب تلك الساعة والنصف (أو أكثر قليلاً) الصعبة فى محطة ماراتيا التى نزلت إلى محطتها أنا وحدى من هذا القطار. ولم يكن فى المحطة غير اثنين أحدهما بزى السكة الحديد، والثانى يظهر أنه انتهى من دوامه الرسمى فى السكة الحديد أيضاً ويستعد للعودة إلى منزله.

كان الأول يتكلم بعض الإنجليزية، فسألته عن الفندق فقال إنه مكان جميل، ثم انقلب إلى الإيطالية يتحدث بها، وأنا أرجوه أن يتحدث الإنجليزية، بلا جدوى، لأنه أدرك أنى أفهم الكلام الإيطالى الذى يقوله، وأنا أحاول أن أثبت بكل الطرق أنى لا أفهم شيئاً من الإيطالية، ولكنه لا يصدقنى، ولا يريد أن يصدقنى لأنه وجدنى وقد استوعبت الجملتين الأوليين، وأرجوه أن يتصل بالفندق، فيثبت لى أن التليفون الذى عنده هو تليفون السكة الحديد، وأن تليفون المدينة الذى فى المحطة قد كسر وخرب منذ مدة، ويأخذ بيدى إلى مكان يزعم أن كان فيه تليفون المدينة قبل أن يخرب.

وأعود لأساله: هل من أتوبيس؟ هل من عجلة بخارية أو يدوية؟ يشير فى شىء من الاستهزاء والشماتة إلى الساعة فى يده وإلى أنها الرابعة والنصف الفجر، فرجوته

أن يجد لى حلاً بأى ثمن، فلم يعرنى التفاتاً، وانصرف يرطن بالإيطالية دقائق معدودات، فرجوته أن يتحدث بالإنجليزية، فقال لى فى شيء من الاستعلاء: فى إيطاليا لابد أن تتكلم الإيطالية، فاعتذرت إليه أنى لا أعرفها، فقال يجب أن تعرفها قبل أن تأتى إيطاليا!، تأتون إيطاليا وأنتم لا تتكلمون الإيطالية ؟؟، وكان يريد أن يكمل السلسلة المتوقعة من مثل هذا الحديث أن هذا غش وخداع وتضليل وقلة ذوق أن نأتى إيطاليا ونحن لا نستطيع أن نتكلم لغتها..

قد يستغرب القارىء مثل هذا المنطق اللطيف، ولكن المؤكد أن الذين يعرفون أو الذين تعاملوا مع عقلية مواطنينا فى النجوع البعيدة من وطننا (أولئك الذين لا يزالون يؤمنون أن حاكم مصر هو الملك فاروق الأول أو الذين يدعون فى صلاة الجمعة للسلطان الغورى) لا يستغرب مثل هذا التفكير القاصر الذى يستنكر على زائر إيطاليا أن يزورها دون أن يعرف لغة أهلها (العذبة السهلة كما كانوا يصفونها لنا فى معهد دانتى أللجيرى بالقاهرة).

انصرف عنى صاحبى وتركنى لصاحبى الآخر الذى لم يكن يقل عنه غطرسة وإهمالاً لشأن ضيفهم (الذى قطع الأطلنطى إليهم) وكأنه جاء لزيارة بلاد غير بلادهم.

هذه عقلية الإهمال واللامبالاة التى تعامل الأمور بمنطق المسئولية الفردية الاستبعادية فلا تكون النتيجة إلا أن يستبعد كل سائح هذا البلد من كل برامجه المستقبلية.

❑

والوقت يمضى وأنا جالس فى مكتب هؤلاء «المحولجية» رغم أنفهم أتأمل فى حال هذا الأنف الذى لا يشم، ولكنه مع ذلك يترفع بلا مبرر.

حتى كانت الساعة السادسة صباحاً وجاء أول تاكسى، وكان صاحبه رجلاً عجوزاً يبدو أنه تعدى السبعين، فجانبه النوم فى الليل، أو أنه استيقظ مبكراً لأنه ينام مبكراً على عادة المسنين.

كان التاكسى سيارة ريتمو وهى المرة الأولى التى أرى الريتمو فيها يعمل تاكسى (سيعمل فى مصر بعد عام أو عامين كطبيعة الأمور)، انصرف الرجل إلى فندق «فيلا دى ماريا» فى أناة وتمهل يفرضهما ضيق الطريق، وإن لم يستدعهما أو يفسرهما خلوه من كل شىء، والطريق ينحدر ويميل وينحرف

وصاحبنا ثابت الجنان يعرف كل منحدراته، يستعد لها ويتعامل معها برشاقة، وينصرف منها بسلام.

حتى جاء إلى شبه باب أو مخرج من الطريق وانحدر إليه، ولم يكن هذا إلا المدخل إلى الفندق. نزلت السيارة إلى ما يبدو أنه المكان المخصص لانتظار السيارات وهو أسفل الشارع بحوالى خمسة أمتار، ثم أشار إلىّ السائق أننى يجب أن أنزل بعد ذلك هذه الدرجات (خمسًا وعشرين درجة) فأجد باب الفندق، فأضرب الجرس، فيستيقظ موظف الاستقبال.

❑

الآن وقد وصلت إلى موطن جمال حقيقى أرجو أن أتحدث عن الجمال وأن أدع الحديث عن السائق وحسابه وما يسمى بالاستكراد! وموظف الاستقبال واستقباله!

وتأمل معى أمر هذا الفندق وكيف أخذ من جمال الطبيعة كل جماله، ومن الإدارة البشرية كل ما ينقص من بعض هذا الجمال.

الطريق كما قلت أعلى الجراج بحوالى خمسة أمتار والجراج أعلى المدخل بحوالى أربعة أمتار وفى مستوى المدخل (ديسك) الاستقبال والمطعم وبعض الحجرات تحتل الطابق الثالث، وفوق هذا الطابق بعض الحجرات التى تمثل الطابق الرابع من حجرات الفندق ولكنها لا تصل إلى مستوى الشارع أبداً، وتحت الطابق الذى فيه المدخل يقع الطابق الثانى وكانت فيه حجرتى، وفيه أغلب الحجرات والبار وصالة التليفزيون، وتحت هذا الطابق طابق آخر هو الطابق الأول كانت فيه قاعة الاجتماعات التى ينعقد فيها المؤتمر، وحمام السباحة الذى كان يرتفع عن قاعة المؤتمرات أربعين سنتيمتراً، والتراس الذى حوله جميل جميل.

وبين هذا الطابق الأول والطابق الثانى [الذى فوقه] طابق مسحور كما يقولون، كانت فيه حجرات السكرتارية والمكتبة.

تحت كل هذه الطوابق الأربعة وتحت حمام السباحة كانت هناك حجرات لا ندرى ما شأنها، ولم تكن أبوابها الأنيقة تدفع إلى الظن بأنها مخصصة للمخازن.

❑

تسألنى بعد ذلك عن شاطىء البحر الذى تقع عليه ماراتيا ويقع عليه فندقنا. ولك كل الحق فى السؤال. ولكنه يقع تحت حمام السباحة بحوالى ستين متراً... ولم يكن النزول إليه بالأمر السهل إنما هو يحتاج إلى مصعد ينزل بك (بمائتى ليرة) ثم تهبط سلماً مكونا من درجات مائة فى أكثر من منحنى جبلى صعب، ولكن هذا النزول كان بمثابة الأمر المعتاد من نزلاء الفندق خاصة فى فترة الظهيرة حيث ينصرف أعضاء مؤتمرنا وهم أغلب نزلاء الفندق إليه.

تأمل عندئذ أن هذا البحر كله لك وحدك، أنت وعشرة أو خمسة عشر فقط تعرفهم

وتألف أغلبهم. وتصور أنك تملك هذا الشاطىء لا يعكر عليك صفوك فيه ولا يقطع عليك تفكيرك وأنت عليه ، لا زحام بشر! ولا ضجيج مرور! ولا صوت سيارة! ولا حركة حياة!

ومن أين تأتيه الحركة وهو بعيد عن الميناء! بعيد عن الطريق!، والطريق بعيد عن الحياة! والحياة بعيدة عن هذه المنطقة!.

أحقاً إن الحياة بعيدة عن هذه المنطقة؟، أم إن هذه هى الحياة الحقة التى حرمتنا منها المدنية الحديثة؟..

وهل حقاً حرمتنا المدنية الحديثة من هذه الحياة الحقة؟

كيف نقول ذلك وقد جئنا هنا فى يوم أو يومين من أقصى الدنيا بوسائل المدنية الحديثة؟

وكيف نقول هذا ونحن لم نأت إلى هنا إلا لنناقش مرضاً من أبرز أمراض المدنية الحديثة.. فلنقل إن المدنية الحديثة باعدت بيننا وبين الاستمتاع بهذه الحياة أو بمثل هذه الحياة الهادئة الصامتة الساكنة ولكن أن نقول إنها حرمتنا منها فهذا ظلم بيّن.

❑

إذا كنت على الشاطىء نظرت فلم تجد للماء الذى أمامك نهاية، وليس هذا بالشعور الجديد عليك هنا، ولا هو بذى علاقة بغور الماء ولا باتساع السطح المائى الذى أمامك، فإنك واجد هذا الشعور على شاطئ الأطلنطى والهادى كما تجده هنا تماماً بتمام، إنما تستطيع أن تفاضل بين هذه الشواطىء بصفاء الماء، وبلونه، وبحرارته، وبقوة أمواجه، وبمده وجزره، وبصخوره وكيف يسير الشاطىء فى انحدار واعوجاج

وانحراف.. وكل هذا يتيح لك أن تفاضل بين هذا الشاطىء وذاك، وأن تشعر بعد ذلك أن لك شاطئا من هذه الشواطىء له سماته التى هى له من دون غيره.. عن هذه السمات أستطيع أن أحدثك وأنا واثق أنى لا أضيع وقتك فى الأوصاف التقليدية (الأكليشيهات) من صفار الرمل وزرقة الماء الداكنة، ونظافته التى تجلو عنها آثار البشر التى لا تتبقى.

هل تستطيع أن تقدر بُعد مسافة شاطىء الإسكندرية أو رأس البر أو مطروح أو بلطيم، لا... لأنك تستطيع أن تمتد بهذا الشاطىء من الماء إلى داخل المدينة على نفس المستوى.

وليس على هذا الحال فى شاطىء ماراتيا إنما هو شاطىء ضيق (إن وجد) لا يمتد لأكثر من عشرة أمتار تليها المرتفعات التى ترتفع مائة متر إلى الطريق لتجد من فوقه مرتفعات أخرى ترتفع مائة متر أو مائتين أخرين أو لعلك تتصور الآن السائر على الطريق أو بالأحرى الشريط الضيق المرصوف الذى يمتد بانحناء بين مستويين من الجبل، فإذا كان على يمينك الجبل العالى فإن على يسارك الجبل الآخر الذى سفحه هو الماء الذى لا أول له ولا آخر..

تصور أنه، لا قدر الله، اضطر السائق أن ينحرف عن الطريق هذه الناحية.. ارجع بمخيلتك معى إلى الطريق بين مدينتى المنصورة وبنها فى بعض مناطقه فى الصيف حين يرتفع منسوب الماء فى الرياح، ويصبح الموت غرقاً هو المصير الذى ينتظر مَنْ تنحرف منه عجلة القيادة ناحية الرياح.. هذه صورة مبسطة للصورة التى تحدها هنا، ولكن بين ذلك الرياح النيلى الذى نحسبه عميقاً وضخماً وبين الطريق حوالى خمسة أمتار هى منطقة أمان، يقابلها هنا خمس بوصات فقط.. وعندنا فإن مستوى «الريّاح» فى مستوى الطريق، ولكن مستوى الماء هنا تحت مستوى الطريق بخمسين متراً..

تصور معى كيف يمكن تصوير أفلام الرعب البوليسية على مثل هذا الطريق ذى الأمتار الستة أو السبعة عرضاً!

بل اقرأ مثلاً قصة «القديس يهاجم المافيا» وهى مطبوعة فى روايات الجيب. وتصور قائد السيارة حين اصطدم بسيارة من سيارات المافيا جانباً فتدحرجت من هذا الطريق إلى ما يسمونه الموت!!.

❑

دعك من كل ما يخوّفك أو يغريك فى هذا الفندق وانصرف معى إلى حجراته الضيّقة وهو ذو الأربعة نجوم، تجد كل حجرة منه على البلاط أقصد بلا بساط ولا موكيت ولا سجاد. وحمامه كما وصفه زميلى الألمانى (Funny) لا بانيو ولا خلاط والماء الساخن لا يأتيك فيما بين الحادية عشرة مساء وطلوع النهار (وهذا تطبيق مهم من تطبيقات الذكاء الإيطالى لأنهم يعرفون أنك بحكم الصمت القاتل فى منطقة الفندق لا فى الفندق فحسب ستذهب إلى السرير قبل هذا الوقت) ولا تليفزيون فى الحجرات إنما هو فى صالة التليفزيون ، كذلك فان الحجرات غير مزودة بتليفونات والتليفون الوحيد على خط مركزى عند عامل الديسك، وعند هذا ميكروفون لا يفتأ ينادى به على مَنْ يأتيه تليفون (ولابد أن أذكر لك هذه الرقة ممزوجة بالسرسعة تأتينا على لسان عاملة التليفون: دكتور فلان.. تليفونوو.. حسب لغتهم) فينصرف النزيل من حمام السباحة، أو من المطعم أو الشاطى أو قاعة الاجتماعات مسرعاً.. ولا تكييف مركزى ولا محلى، صحيح أن الجهاز موجود ولكنه معطل، ومع هذا كله فإن سلطات السياحة الإيطالية تمنح هذا الفندق بكل ما ليس فيه درجة أربعة نجوم.

❑

أبرز الأماكن الممتعة، فى هذا الفندق هو البار، لا أدرى هل هو محترم كبقية

حـجـرات الفنـدق؟، ولكنه الشيء الوحـيـد الذي ينصـرف إليـه بعض النزلاء كل مسـاء.

وإذا خرجت إلى الشـارع لا تجد إلا سيارة تعبر الطريق كل خمس دقائق، وذات مرة خرجت فسمعت صوتاً قادماً من بعيد، وإذا بسيارة بضاعة تحمل الميكرفون، ووقفت السيارة لينادى الرجل بعض الوقت، ولم أكن بمطمئن إلى أننى سوف أفهم ما يقول، فانصرفت إلى مؤخرة السيارة، فوجدتها محملة بالعنب فى شقق، فى الشقة الواحدة حوالى خمسة كيلو، وسألته عن ثمنه فقال أربعة آلاف ليرة «يابلاش»

لسوء حظى كنت قد خرجت يومها بملابسى الرياضية وليس معى نقود إذ ليس فيها جيب، فأسفت وتمنيت أن يعود، فلم يعد، أو لعلى لم أخرج فى وقته، أو لعله يأتى كل أسبوع مرة، بل ربما أنه يأتى مرة واحدة فى موسم العنب!.

❑

أحب أن أحدثك عن المرشدة السياحية التى قادتنا يوم الأربعاء فى جولة استضافنا فيها مكتبهم السياحى..

لم تحـضـر مـع الأتوبيس ولا عند تحـركـه، إنما اتفـقت مـع السـائق أن يتـوقف بالأتوبيس لهـا عند نـاصـيـة مـا (فى هذا الطريق الذى لا تجـد فـيـه إلا نواصى المنحنيات)، فجاءت وقدمت نفسها، وحاولت أن تقول شيئاً بالإنجليزية فلم تفلح، فذهب إليها الأستاذ اليهودى من آخر الأتوبيس وطلب إليها بطريقة مهذبة أن تنصرف عن مهمتها (يقصد عن فشلها فى مهمتها) ففعلت إلا من كلمات قليلة كل خمس دقائق تقول لنا هذه قرية كذا.. فتنطق Village بالواو فى أولها: وليج، حتى تعجبت الأستاذة الإنجليزية الكبيرة من جامعة أبردين وسألت: وهل ليس فى الإيطالية حرف الـتى (٧)؟.

وأحب أن أحدثك أيضاً عن طاقم المطعم، وكلهم يحبون كرة القدم، ورئيسهم يحب السياسة، ويقدر الرئيس السادات ولكنه يكره الألمان، كنت فى أول يومين أتهيب رؤيتهم، ثم تلطفوا معى إلى أن صاروا أصدقائى، وقد عرفت طبعهم فعاملتهم طوعاً له.

وأحب أن أحدثك عن تلك الفتاة التى تعمل فى الفندق والتى تتكلم الإنجليزية وقد كلفوها بأن تكون حلقة الوصل بين المؤتمر وبين الفندق وشركات السياحة والطيران وأن تنظم لنا الحجرات وإحضار الحقائب المتخلفة.. إلخ، وأن ترد على أسئلتنا، هكذا كلفوها، ولكنها لم تكلف نفسها من ذلك شيئاً إلا أن تُعقِّد كل مسألة قابلة للحل، فحجز الطائرة يتم عن طريق شركتهم السياحية فى سابرى، والمسألة بسيطة هكذا تقول لك، لن تكلفك إلا ثمن مكالمة التليفون إلى سابرى وكم ياسيدتنا: خمسة آلاف ليرة فقط!، ولكنى كنت متأكداً أنها ستعود لهم بالأعذار، وهكذا فعلت دوماً مع تنويع وتكرار فى الأعذار: لم يكن أحد فى المكتب فى روما!، نابولى لا ترد!، سنحاول غداً!، وقبل كل ذلك تقول لك: حسناً (Well) تؤكد على اللام المشددة!!، فينشرح صدرك ثم سرعان ما ينقبض، لا تجد عندها إلا قواعد روتينية وقوانين عتيقة تشرح لك أصولها وفصولها.

عندنا للأسف مثل هذا النوع فى مصر، يظنون أنك تذهب إليهم ليشرحوا لك القوانين المانعة لتحقيق طلباتك.. فى حين أنك ترجو تحقيق طلبك..

يظنون أنهم بهذا التفصيل فى الشرح يُبرئون أنفسهم، وهم لا يدرون أنهم يضيفون بعداً سيئاً إلى أبعاد شخصياتهم الواهنة الواهية.

لا أظننى أتحامل فى هذه الفكرة، ولكنى أعبر عن ذلك الشعور الذى يعترى صاحب الحاجة المشروعة حين يجد مَنْ هو مكلف بقضاء حاجته وحاجات الناس وهو ولا يقضيها، ويشرح ويثبت أن الأصل ألا يقضيها، ثم يكون فى وسع صاحب الحاجة إذا ما لجأ إلى طريق آخر أن تقضى حاجته فى وقت يسير، فى حين - وهذه هى

المصيبة أو مصدر الألم الحقيقى أن مثل هذا الموظف أو هذه الموظفة يأخذ من وقت الإنسان يوماً ويومين، ويعطى الأمل فى أنها ستقضى ... ولكن بلا جدوى.

❑

ولقد علمتنى الحياة إذا توسمت فى الإنسان من هؤلاء أنه من هذا النوع أن أسأله فى حدة: هل هو عازم أن يفعل شيئاً أم إنه سيسأل؟ هل أوكيه (ok) معناها أنه سينفذ أم إنه سيعرض الموضوع؟، هل غداً معناها أن الموضوع سينتهى غداً كما أريد أم إنه سيبدأ فى عرضه غداً؟ هل بعد ساعتين معناها أن الموافقة ستتم بعد ساعتين أم إن الطلب سيعرض على المختص بعد ساعتين؟ بمثل هذه الحدة كنت أوفر كثيراً من الوقت الثمين فى بعض الأحيان التى أصادف فيها بعض هؤلاء. وكم من مرة أسفت فيها أنى لم أستعمل هذا الأسلوب القوى الفعال... ولا أظننى ندمت حتى الآن ولو لمرة واحدة على استعماله مع هؤلاء.

ولقد أذكر أنى قلت لهذه الفتاة على مسمع من بعض الزملاء أعضاء المؤتمر إننى لست بمجنون لأعطيها التذكرة لتغير لى عليها موعدا أو موعدين فلا أدرى ما العواقب؟، وسوف تعود مرة ومرتين وثلاثاً بأن هذا ليس ممكنا لأن الطائرة كاملة العدد بينما الطائرة ليس عليها، حتى هذه اللحظة، إلا خمسة ركاب من أربعمائة!، أو أن هذه التذكرة غير قابلة للتعديل أو.. أو... من قواعد الطيران الألف. لا شك أن معلوماتها فى الطيران لا تقل عن ١ ٪ وعلى هذا فلن تعدم عشرة أعذار، تراوح بينها يوماً بعد يوم وهى لم تتصل .. ولا يحزنون.. هذا فضلاً عن ضياع التذكرة أو عن غيابها هى يوم سفرى أو .. أو.. إلخ، هكذا كانت عبارتى بكل قسوتها أننى لست مجنونا، وقد أيدنى بعض الأساتذة المخضرمين، على حين ظن بعض الشباب أننى أتحامل، وسوف تريهم تجاريهم أنى كنت أتحمل ولا أتحامل .... (وقد أرتهم الأيام بالفعل!!.

أحدثك الآن عن انتظام أعضاء الندوة جميعاً فى الحضور، كنت أنظر فى كل ندوة صباح مساء لعلى أستطيع أن أكتشف غياب واحد من الأعضاء فلا يمكننى حرصهم على الحضور من اكتشاف غياب أحد، ولم يكن هناك دفتر للحضور أو الانصراف، ولا ورقة نكتب فيها أسماءنا قبل دخولنا، ولا شىء من هذا، ولم يكن هناك مسئول يلاحظ علينا انتظامنا. إنما هو الانتظام الداخلى الذى لم يكن فى حاجة إلى رقيب.

أحدثك أيضاً عن قاعة المحاضرات التى هى أهدأ ما فى الفندق الهادىء، حائطها الأيسر من الزجاج يطل على التراس حول حمام السباحة، ولكنه مغطى بستائر كثيفة من الداخل تحول بين العلم وبين العبث! أو الاسترواح من العلم، وليس للقاعة حائط أيمن، وإنما تنتهى القاعة لتتخذ من الجبل المجاور حدها الأيمن، وهذه الواجهة الصخرية من الجبل فيها كثير من الأعشاب الخضراء بين الصخور التى هى لا رمادية ولا طوبية. فأنظر إلى قدرة المهندس المعمارى حين سخر الطبيعة أو حين استغل الطبيعة فأبدع وأمتع واستنفع.

ولكن القاعة مثلها مثل حجراتنا ومثل المطعم ومثل كل شىء فى هذا الفندق ،لا أستطيع أن أترك القلم يجمح ويقول ومثل كل شىء فى إيطاليا، على البلاط، ولعل هذه المرة الأولى التى أكتشف فيها من أين أتى نظامنا المصرى بالبلاط والرطوبة المحترمة!.

❑

أما هذا الفندق، فليس فيه إلا مفتاح واحد لكل حجرة، هكذا قالت لنا الفتاة، وطلبت إلينا أن نترك المفاتيح دائماً فى الاستقبال،حتى يمكنهم التنظيف، أو حتى نجد نحن الذى نشارك بعضنا حجراتنا مفاتيحنا من دون إجهاد ولا تعب فى البحث عن الزميل، وكنت أظنها تقول هذا من باب الاحتياط، فاتضح أنه من باب الواقع.

وحدث أن جارى الفارماكولوجى الفرنسى جاء ذات يوم من الدور الذى يقع تحتنا ومعه صبى من عمال الفندق معه مفك وشاكوس، كانوا يعتزمون فتح الباب بهذه الطريقة، فاقترحت عليهم أن يقفزوا من بالكونة حجرتى، إلى بالكونة حجرته (ولم يكن لشرفة حجرته اتصال بالحياة إلا عن هذا الطريق)، وامتنّ الرجل امتناناً شديداً، وفُتح الباب المؤدى للبلكونة بالطرق اللولبية، ودخل، ولم يجد مفتاحه فى الداخل أيضاً، وعاد من حجرتى بنفس الطريقة، مرتين وثلاثا حتى أكتشفوا أن المفتاح كان عندهم، ولكن الغباء جعلهم يضعونه فى مكان غير المكان.

لعلهم لم يكتشفوا ذلك إلا عندما أحضر المفتاح الأصلى صاحب المكان الذى وضعوا فيه مفتاح الفرنسى خطأ..

❑

لا يأتى الصابون فى هذا الفندق إلا بالطلب، ولا يأتى ورق للتواليت إلا بالطلب، والماء الساخن كما حدثتك لا تجده بعد الحادية عشرة مساء، وحتى صباح اليوم التالى، بل حتى ضحاه، والتليفون بالدور، وتدفع لكل شىء ثمنا، احتجت بعض الورق الأبيض لأكتب عليه، فأعطونى ورقتين بالعدد، فلما طلبت مرة ثانية، قالت لى فتاة الاستقبال، تعنى أنك تريد ورقا مرة ثانية؟ فقلت: نعم ثانية، قالت: كم؟ انتابتنى نشوة من السعادة أن ستعطينى ٨ - ١٠ ورقات وشعرت لأول مرة بالامتنان، قلت لنفسى لقد أحست بحاجتى، ولا تريدنى أن أطلب مثل هذا الطلب اليسير مرة ثانية، ولهذا تسألنى عن العدد.. وللأسف لم تستمر النشوة ولا السعادة فقد فوجئت بها تقول هل نضيف ثمن هذا الورق على حسابك، كدت أقول بكل امتنان، ولكن الله هدانى لأسألها كم ثمن الورقة الواحدة؟ قالت: الورقة الواحدة تكلفك ألف ليرة. قلت: لا! وشكراً.. هل أدفع حوالى ثمانين قرشا للورقة الكوارتو [٦٠ جراما] .. مَنْ يكون الحرامى إذاً !!.

بدأت التخطيط لزيارة روما.

وصلت إلى وسط نابولى بسيارة صديقى فرنسى، وكان علىّ فى نابولى أن أذهب إلى المطار، حتى إذا ماوصلت مطار روما كان علىّ أن أعود إلى وسط البلد مرة ثانية ثم أعـود إلى المطار.. إذاً فـالقطار من نابولى إلى رومـا مـبـاشـرة أرحـم (لا بأس من التضحية بثمن التذكرة الذى دفعته ولن يعود إلى)، وهو كما أخبرونى يأخذ المسافة فى ساعتين وربع.. إذاً فلا بأس. قطعت التذكرة وسألت عن القطار المتحرك إلى روما (كانت الساعة الثانية إلا دقائق) فكتب لى الرجل اسم قطار جنوة الذى يتحرك فى الواحدة وثمان وثلاثين دقيقة.. ولكن الساعة الآن الثانية ياسيدى.. قال: إن القطار لم يتحرك بعد، الحقه. جريت أحاول اللحاق به وأنا أبحث عن قطار جنوة هذا الذى لم يتحرك بعد من على الرصيف، فلا أجده. وأسأل فأجد هؤلاء الناس المجتمعين ينتظرونه... إذاً فالقطار لم يتحرك من الجراچ بعد.. وكأننا فى باب الحديد!

نصحنى شاب لطيف أن أبتعد عن قطار جنوة لأنه إذا لم يأت الآن فلن يأتى قبل ساعتين، وأشار إلى قطار على رصيف بعيد، لم يحمل لافته بعد، وقال هذا سوف يكون قطار روما، فقلت ولكن اللافتة المضيئة فى واجهة المحطة لا تقول ذلك، قال لا عليك من أمرها. وكان الجلوس فى قطار لن يتحرك خيراً من البقاء على المحطة بين أناس يتحركون فى قلق يقلقك على الليرات القليلة التى فى جيبك.. يأتى الناس إلىّ على الرصيف يسألوننى، بماذا أجيب؟ هل سيفهمون الصدق إذا قلته، وانصرفت إلى الإجابة بمط الشفتين وتحريك اليدين على طريقة الطليان! وما زالت جالسا فى القطار حتى وجدت الناس يندفعون إلى القطار فسألتهم أين يذهب هذا القطار فقالوا روما.. وعجبوا للجالس فى القطار يسأل القادم إليه، وكان لهم الحق بالطبع فى هذا العجب.

على أن الحال لم يستمر لأكثر من دقائق معدودات نادوا بعدها أن علينا أن نتحرك

من رصيف ١٧ إلى رصيف ١٣ (هذه هى التفاصيل الدقيقة التى لو كان عندهم أرشيف لحركة القطارات والإعلانات عنها لوجدوها دقيقة ١٠٠ ٪)

هناك جاءنا قطار بعد عشر دقائق فركبناه، وبقينا به عشر دقائق أخرى حتى نادوا علينا أن نرجع إلى رصيف آخر، كان هو الرصيف الأول (١٧)، وركبنا القطار الأول الذى كنت قد استرحت فيه بناء على نصيحة ذلك الشاب الظريف، وانتظرنا حتى تحرك القطار، وإذا به يقف من آن لآخر.. أهذا هو الإكسبريس أيها السادة؟ نعم ياسيدى ألا ترى سرعته، نعم إنى أرى سرعته ولكن الذى يزعجنى هو الوقفات المتوالية!، لم يعد إلا خمس وقفات فقط.. لا فائدة..

❑

تسألنى عن ألطف شىء فى الفندق [أو البنسيون] الذى نزلت فيه فى روما، لأنك لا تريد كل تفاصيله، أستطيع أن أخبرك عن أمرين، الأمر الأول أن المصعد فيه لا يتحرك إلا إذا وضعت له عشرة ليرات، وهى عملة نادرة الآن فى إيطاليا (حوالى ٨ مليمات) وفيها أزمة أو ندرة كالمليم المصرى اليوم! وبهذا فإنه من النادر أن يتحرك هذا المصعد.. إلا لساكن يدخر هذه العشرات ولعله يستخرجها من خزينة المصعد من حين لآخر..

أما الأمر الثانى فأمر صنبور المياه ذلك أن صاحب هذا الفندق الصغير لا يتيح المياه الساخنة لنزلاء البنسيون إلا نحو ساعتين فى المساء، ثم يصعد بنفسه فى حوالى الحادية عشرة (رأيته بعينى) فيقفل كل الدوائر الكهربائية التى تُشغّل السخان.

على أن الأعجب من هذا أن مفتاح صنبور المياه الساخن فى الحمام قد نزع مقبضه، وبقى من غير مقبض، فإذا احتجت أن تحركه، فعليك أن تذهب لإحضار

المقبض.. إلا إذا كان معك مفاتيح العجل الخاصة بسيارتك ووجدت مفتاح ٨ أو ١٠ يفتح لك الصنبور...

❑

تحاول أن تشترى بعض الفاكهة فيبيع لك الفكهانى ٨٥٠ جراما على أنها كيلو، يُحكى أن أحد المصريين حاول مرة أن يجادل الفكهانى فى ذلك وكان الفكهانى فتاة، فأخرجت له الخنجر.

لست ضد إيطاليا، ولكنى لا أستطيع أن أترك كل هذه الظواهر، ولا يستطيع غيرى أن يتركها من دون أن يخرج بحكم ما على الإيطاليين، مع كل الاحترام للحضارة والجمال وللنظام.

وظنى أنى لا أعدو فى هذا الحديث المنتقد أن أكون مسقطاً لما يتنامى إلينا من شكوى السياح من معاملة بعض أهالينا فى مصر للسياحة وللسياح.

على أن الحق يقتضينا أن نذكر الجهد المشكور الذى تقوم به حكومة إيطاليا فى صيانة الطرق من آن لآخر، وقد أتيح لى أن أعود من المؤتمر إلى نابولى فى طريق معبد حريرى يشهد بكفاءة هذه الحكومة فى صيانة الطرق وتعبيدها والحفاظ عليها.

❑

كلمات كثيرة من لغتنا الدارجة تجدها هنا فى الإيطالية، منها على سبيل المثال: الجيلاتى، وقفت كثيراً أشرح للبائعة أنى أريد ذلك الكوب من الآيس كريم فلا تفهم فلما رأيت على لافتة الأسعار كلمة جيلاتى قلت لعلنا أخذنا الكلمة من الطلاينة، فقلت جيلاتى، فتهللت أسارير البائعة.. فلما ناولتنى كوب الجيلاتى، وجدته أقرب ما يكون إلى الجيلاتى المصرى البلدى المصنوع فى المحلات الصغيرة، وعندئذ أيقنت أننا فى

مصر لم نأخذ كلمة الجيلاتى من إيطاليا فحسب، ولكننا أخذنا الجيلاتى نفسه. وتمنيت لو أننا كنا قد أخذنا الآيس كريم الأمريكانى أو حتى الإنجليزى أو الألمانى.

❑

هل لى الآن أن أحدثك عن أعضاء المؤتمر، وسوف أحاول أن يكون هذا فى تقديرى حديثاً يصور لك بيئة هذه البلاد الاجتماعية من خلال شخصياتها وعلمائها وأسرهم بقدر المستطاع.. سيساعدنى فى هذا الحديث أننا كنا نلتزم أسلوب التباديل فى الجلوس إلى بعضنا فى العشاء والغداء بحيث لا يكرر الواحد منا الجلوس إلى مَنْ جلس إليهم من قبل، وذلك من أجل أن يحدث التعارف بين الجميع على نحو جيد.. والحق أن مثل هذا الأسلوب وأمانتنا فى الالتزام به جعلتنى وجعلت الآخرين نعرف كثيراً عن بعضنا. وهكذا يمكننى أن إحدثك عنهم.

❑

فلنبدأ بالأساتذة المحاضرين، أول هؤلاء هو الرئيس الدكتور مالينوف، وهو أستاذ فى معمل أمراض القلب والأوعية، فى مركز أرجون للبحوث، بالإضافة إلى أنه أستاذ فى جامعة أرجون للعلوم الصحية فى بورتلاند، والأستاذ مالينوف رجل هادىء الأعصاب، يقود الجلسة من الجلسات التى يتولى رئاستها، فتحس به كالنسيم، يقدم الأستاذ من المحاضرين تقديماً مختصراً ولكنه يحوى من معانى التقدير الكثير، أسئلته لغيره ذكية واضحة محددة، قد يكون فيها فتح أبواب جديدة للبحث أمام المحاضر نفسه، ولكن تعليقاته أقل ذكاء، أما إجاباته فمختصرة، إذا لم يكن قد بحث فى الموضوع ذاته، فعنده إجابة مختصرة ومقنعة هى: لا أعلم، وبهذا فقد أفتى.

كانت تصحبه زوجته، وكنت لا تراها إلا بلباس البحر، صباح مساء ولم أكن أدرى عن حكمتها ووعيها شيئاً إلى أن جلست إليهما ذات عشاء فى اليوم الخامس، وقد

تحدثت عن مأساة التدخين، وكيف أنها مفزوعة لأمر أوروبا، واليونان بالذات التى عادت منها لتوها، فخمسة وسبعون فى المائة من الناس يدخنون وبشراهة؟ وتساءلت : كيف يعيش شعب بهذه الطريقة!.

الدكتور مالينوف، وزوجته أيضا، من أصل أرجنتينى، والأصل الأرجنتينى فيه أصول أو فروع إيطالية، قد عاشا فى شبابهما بالقرب من الإيطاليين فى ذلك العالم الجديد، ولهذا فإنهما يستطيعان الحديث بالإيطالية إلى جانب الإنجليزية والفرنسية والأسبانية التى هى لغة الأرجنتين.. أما ابنتهما الكبرى (٢٩ عاماً) فتتحدث خمس لغات، لأنها تعلمت بالإضافة إلى لغات والديها اللغة الألمانية، وأما ابنهما الأصغر (٢٥ عاماً) فيستطيع أيضاً أن يكتب بالعربية، وقد تعلم الكتابة بها (على الآلة الكاتبة) من أحد أصدقائه العرب الذين يدرسون الاقتصاد فى لوس أنجليس.. وأما ابنهما الأوسط (٢٧ عاماً) فيدرس الطب، وقد حصل على منحة من نيويورك تهيىء له الحصول على درجة الدكتوراه.

❑

أما الدكتور بلاتون، دينامو المؤتمر، فهو «أستاذ تحليلات» كما يسمون أنفسهم فى مصر تماماً، وله معمل للكيمياء الاكلينيكية فى بلجيكا، والدكتور بلاتون دينامو من النوع الهادىء، كثير الحركة نعم، ولكن فى هدوء، واتزان، مع أنه الوحيد الذى وصل قبلى إلى ماراتيا إلا أنى لم يتح لى أن أراه إلا فى الجلسة الأولى، وكان يجلس وراء البروجكتور يحرك الشرائح للأساتذة المحاضرين كلما سألوه ذلك، ولم يكن فى أدائه لهذه المهمة ينجو من أن يشرد بحيث يعيد عليه الأساتذة طلب الشريحة التالية.

ولم يكن الدكتور بلاتون يهتم بهندامه على الإطلاق، ولم أكن أدرى السر وراء ذلك وكنت أظنه عزباً، إلى أن اجتمعنا على المائدة مع الأستاذ ويسلر وزوجته، وسألته هذه السيدة الأمريكية: هل زوجتك لن تحضر؟ وكانت تعرفها، فأجابها: إنها

ستحضر يوم الخميس، إن المشكلة أن عندنا خمسة أطفال!! أكبرهم عمره ١٧ عاماً وأصغرهم عنده ٥ أعوام، وهذا سيدخل المدرسة هذا العام، ولابد أن تبقى حتى يبدأ فى المدرسة أسبوعه الأول ثم تحضر يوم الخميس.

حتى كان يوم الخميس صباحاً، وجدت بلاتون على حال غير الحال، وجدته مبتسماً لامع الوجه والذقن، وغاب عنا فترة الظهيرة، ثم عاد فى المساء بزوجته.

اسمع معى تعليقات السيدات (والسيدات هن السيدات فى كل مكان حتى لو كن زوجات أساتذة الطب الأمريكان).. يا حرام.. خمسة أطفال.. إنى كنت أستكثر الاثنين.. إنى كنت أظن الثلاثة مشكلة.. حسناً أنا عندى أربعة، ولكن حياتى ذهبت أدراج الرياح.. من أطراف مثل هذا الكلام علمت أيضاً أن السيدة بلاتون صيدلانية، وأنها تملك صيدلية فى بلجيكا، إذاً فهى تربح كثيراً، وإذاً فلا بأس أن يكون عندها هذا العدد! ... ولكن يا حرام!!.

حذرتنى واحدة من هؤلاء السيدات أن أفعل هذا الذى فعله بلاتون وزوجته، ثم بعد ثلاث دقائق أردفت بقولها: إلا عندما تصبح طبيب قلب لامعاً فى الأنجيو (Angiocardiography) عندئذ لا بأس خمسة.. ثمانية!.

مأساة أمر هاتيك الحريم فى تفكيرهن، وملهاة أن تستمع (بأذنك فقط) إلى حديثهن.

❑

أما النجم الحقيقى فى الندوة كلها فهو الأستاذ أزمان من مونستر بألمانيا الغربية، وقد جاء الأستاذ أزمان لتوه من ندوة نظمها لمجموعة من العلماء الأوربيين فى «البروتينات الدهنية» وهو أبرز علماء هذه المجموعة اليوم. هذا بالإضافة إلى أنه نشر فى العامين الأخيرين كتابه عن «تصلب الشرايين» وقد نشره فى الإنجليزية والألمانية،

وطبع فى كل من الطبعتين عشرة آلاف نسخة كما أخبرنى عندما تجاذبنا أطراف الحديث عن تجربة النشر العلمى.

جاء الدكتور أزمان إلى نابولى بالطائرة، ثم استأجر سيارة، وسأل عن الطريق فأخبروه (الطليان الطليان طبعاً) أن يسلك الطريق المؤدى إلى روما، فصدع بأمرهم حتى اكتشف خطأه بعد ثلاثين ميلاً كاملة، دخل علينا فى عشاء الأحد فقام إليه كل مَنْ كانوا معى على الطعام من الطليان يرحبون به، وأخبرونى بقيمته العلمية ومكانته فى مجتمع المشتغلين بأبحاث تصلب الشرايين.

كان موعد محاضرة الدكتور أزمان فى اليوم الثانى، وألقى محاضرة الصباح فأمتع، وأجاب على كل الأسئلة، وأظهر تمكناً واسعاً وعميقاً بالإضافة إلى لغته الإنجليزية التى كانت تفوق فى مخارج ألفاظها لغة الأساتذة الأمريكان (على الأقل فيما يتعلق بأذنى التى تود لو استمعت إلى المخارج واضحة لتفهم باللفظ والمعنى لا المعنى والسياق فقط).

أما أداء الدكتور أزمان فى محاضرات اليوم الأول، فحدث عنه ولا حرج كله أذن صاغية، وحواس واعية، فكان يسأل السؤال فى أدق التفاصيل، وبمقدمة طويلة تحس معها أنك تنتهى إلى أن يحدد الأستاذ المجيب خطأً واضحاً ينبغى أن يكون كذلك فى التفكير العلمى.

❑

ولم أكن مذهولاً من هذه القدرة عند الأستاذ أزمان، لأنى كنت أعتقد أن السر فيها هو تأليفه لكتابه الأشهر عن قريب، وحين يكون المرء فى مثل وضعه، فإنه يكون ملماً بالآراء المختلفة حتى فى النقاط الصغيرة، لأنه ـ إذا كان آخذاً أمر التأليف بأمانة ـ يكون مؤمناً أن عليه أن يعنى كل حرف من حروف كل كلمة يضمها كتابه، وهذا

يقوده إلى البحث والتمحيص.. وإنى أؤمن بحقيقة أن التأليف هو قمة التعلم، ولهذا كنت أغبط الدكتور أزمان، ولم أكن مذهولا من هذا القدر من الثقة والانطلاق الذى كان فى كلامه وسؤاله، وإن كنت مقدراً لحقيقة الأمر والأسباب التى وراءه.

ثم إن الدكتور أزمان فى محاضرة المساء من اليوم الثانى، أسرع بالبداية وطلب إلى زميله الذى كان قد أخذ مكانه على المنصة، أن ينتظر حتى يلقى هو محاضرته لأن عليه أن ينصرف مبكراً لمتابعة حالة أعضاء المؤتمر الذين أصيبوا بالاضطرابات الهضمية إثر وجبة الغداء، وأخذ يلقى محاضرة، ثم جاء إلى موضع من الكلام لم يكن يوحى بأنه انتهى، وقال: هنا أستطيع أن أعتذر، وانصرف..

قادنى هذا الوضع إلى التفكير فى حال الألمان، لا ينحدر بهم الخط البيانى، إنما يأتيهم الانقطاع وهم على نفس الخط الذى هم عليه، يأتيهم الانقطاع فجأة، فلا ترى أثراً لهذا الذى لم ينبىء بأنه سينقطع.

ثم إن الدكتور أزمان كعادة كل النجوم اختفى بعد ذلك فلم نره حتى نهاية المؤتمر، ويبدو أن هذه هى عادة النجوم الحقيقيين فى العلم وفى الفن وفى الأدب وفى النجوم والكواكب نفسها.

❑

أحدثك بعد هذا عن الرجل الطيب، العالم الكبير الدكتور «أوسلر»، وهو ذلك الأستاذ الذى سألت عن اسمه استعلامات التليفون فى شيكاغو، فردت علىّ الموظفة برقم تليفونه فى زهو بالغ لا يصدر إلا عمن يقدرون قيمة أن يكون أن عندهم هذا الأستاذ!! وقد تم هذا فى خلال ثلاث ثوان.

الدكتور أوسلر حلق شعره على الزيرو كما نقول، وأطلق الجزء الأوسط من لحيته البيضاء الوقور. نظراته العامة فيها الطيبة كلها، ولكن نظراته إليك تجدها ممتلئة

بالاحترام والتواضع والتقدير، التواضع الشديد، قمت له مرة، فسألنى بكل الصدق ألا أقوم له بعدها.

الأستاذ أوسلر هو أكثر أساتذة المؤتمر قدرة على المحاضرة، لم أشرد منه فى أى محاضراته لأكثر من دقيقة، لا أظن، بدأ محاضرته الأولى بقوله إننا هنا نفتح الأبواب بين العلماء.. بين الأبحاث.. بين المدارس.. بين الأوطان.. ثم روى لنا قصة طريفة عن فتح الأبواب، ثم انطلق، اعترتنى الدهشة لم لم يجعلوا محاضرة الأستاذ أوسلر أولى محاضرات الندوة بدلا من أن تكون الثانية!.

للأستاذ أوسلر كتابان قيّمان عن تصلب الشرايين، بمشاركة غيره من العلماء الأمريكان، والكتابان منتشران على أوسع نطاق فى المدارس العلمية الأمريكية، ومع هذا عندما ذهبت إليه أسأل عن الكتاب الذى يمثل الكتاب الأول فى تصلب الشرايين، من حيث أن يتمتع بصغر حجمه، وإلمامه بالموضوعات، وحداثة محتوياته، وشمول الموضوع قال بلا تردد: كتاب أزمان. كنت أسأله ليدلنى على أحد كتابيه، أو على كتاب ثالث لا أعرفه، فوجدته يقول كتاب أزمان، فقلت له كيف، فأخذ يمدح فى كتاب زميله وفى زميله ويثنى، قلت له: ولكنك لك كتاب. قال نعم، ولكنه يعد بالنسبة إلى كتاب أزمان قديماً، ثم أخذ بيدى، وانتهز فرصة أول أستاذ قابلناه، فسأله سؤالى من دون أن يقول له إنه اختار كتب أزمان، فأجاب الأستاذ الآخر بمثل إجابته، عندئذ طفح وجهه بالبشر، وأخذ يواصل الثناء على كتاب أزمان.

لم يكن الدكتور أوسلر يكف عن تشجيعى وتنبيهى إلى ضرورة أن نكتب وندرس الطب بالعربية على أن الذى كان يفوقه فى ذلك هو الدكتور ديير الإيطالى.

❑

كان الأستاذ ديير الإيطالى يحدثنى عن مشكلات التعليم الطبى فى إيطاليا، كما لو كان الذى يحدثنى هو أستاذ مصرى عن مشكلات التعليم الطبى فى مصر، فهم أيضاً

قد أطلقوا المجانية وهو ينتقد هذا ويقول إن هذا التصرف بلا معنى إلا أن يأتى الطلبة الأمريكان ليدرسوا الطب فى إيطاليا الرخيصة. وهم يدرسون بالإنجليزية والطلبة والطلبان لا يفهمون، والنتيجة أن عشرين فى المائة فقط من الخريجين هم الذين يفهمون الطب، أخذ يراجع نفسه: عشرون فى المائة ! هل هو رقم كبير؟؟، أخذ يراجع نفسه لأنه كان يؤمن أن الحقيقة أقل من ذلك .

والأستاذ دبير وهو أستاذ التشريح والباثولوجيا الهستولوجية لا يقل تواضعاً عن الدكتور ويسلر، ممتلىء الجسم، شعره يشوبه بعض الابيضاض، يقوم بمهمة الأستاذ بلا تون فى تحريك الشرائح إذا ما رأس الأستاذ بلاتون الجلسة أو انصرف لأمر من أمور الإدارة، أو كان هو المحاضر، تطالعك منه فى الصباح وفى الظهيرة وفى المساء ابتسامته العذبة الرقيقة الواسعة التى تنم عن صفاء نفس، وشفافية روح، ولم يكن من حظى أن أتحدث إليه كثيراً، ولكن الدقائق القليلة فى المرات القليلة التى جلسنا فيها إلى بعضنا كانت من حظى السعيد.

❑

وأما الأستاذ كلاركسون من مقاطعة شمال كارولينا، فرجل أنيق، وسيم الوجه، مكتمل العافية على ما يبدو من بنيانه، ولكنه مع ذلك يدخن الغليون، أو فلنقل مع أنه يدخن الغليون، وكان كثيراً ما ينصرف إلى آخر مقعد فى قاعة المحاضرات حتى يخلو إلى غليونه، ويتأمل المحاضرين والمحاضرات عن بعد، ولكن ببعد نظر.

أجرى الدكتور كلاركسون وهو أستاذ الطب المقارن ومدير أبحاث تصلب الشرايين فى جامعة ديك فى ونستون سالم، بحوثاً عميقة على القرود الراقية قريبة الشبه بالإنسان لمدة طويلة من الزمن، وعلى أنواع عديدة وأعداد كبيرة تستحق التقدير، وخلص من هذه الأبحاث إلى كثير من النتائج الهامة التى أكسبته احترام زملائه جميعاً.

وقد حاضرنا الدكتور كلاركسون خمس مرات، مرتان يوم الأربعاء، ومرتان يوم الخميس، ومرة يوم الجمعة.

كانت محاضرته الأولى عن الباثولوجيا المقارنة لتصلب الشرايين في أنواع الراقيات، وكانت محاضرته الثانية عن كميات إصابة الشرايين في الحيوانات، والثالثة عن تراجع تصلب الشريان التاجي في الراقيات غير الإنسان. والرابعة وهي أمتعها عن خبراته في المشكلات المتعلقة بالطرق غير الغزوية (غير النافذة) (Non-Invasive) الخاصة بتقدير درجة تصلب الشرايين.

أما محاضرته الخامسة والأخيرة فكانت عن الجليكوسيدات النباتية وتراجع الإصابة بتصلب الشرايين في الحيوانات.

❑

هل لنا أن ننتقل من الحديث عن الأساتذة الأمريكان إلى أستاذين إنجليزيين، فيهما كثير من سيماء العلم الإنجليزي، وبخاصة العقلية التحليلية التي تعمد إلى حقائق العلم مباشرة تحليلاً دقيقاً لجوانبها، والبحث في العوامل النسبية، للإثبات أو للنفي.. كانت هذه العقلية واضحة جداً في الأستاذة سميث من الشمال وبالتحديد من أبردين وهي أستاذة في الباثولوجيا الكيميائية، وفي عقلية الأستاذ والتون وهو باثولوجي كبير في جامعة برمنجهام، وقضى أول أيام عمله في الحرب العالمية الثانية في الهند في كثير من المناطق التي أتيح لي أن أزورها هناك. كان الأستاذ الإنجليزي مصحوباً بزوجته وكانت الأستاذة الإنجليزية مصحوبة بزوجها.

حدثنا الأستاذ والتون في أول محاضرة عن «تطور الإصابة بتصلب الشرايين» ثم حدثنا في المساء عن «احتمال التعرف على تراجع تصلب الشرايين في الإنسان».

❑

ومن ألمانيا الغربية كان هناك زميلان كانت الدكتورة كويك قد جاءت من

دسلدورف وكانت ثيابها ومشيتها ونظراتها وتعبيرات وجهها كالعسكريين الألمان تماماً، ولكن مناقشتها وردودها على الأسئلة التى وجهت إليها عقب المحاضرة الإضافية التى أتاحوها لها، كانت أشبه بطريقة الدبلوماسيين المحنكين الذين يتركون الأبواب مفتوحة دائماً.

حدثتنا عن دراستهم للأطفال اليابانيين فى منطقة دسلدروف، وهى المنطقة الصناعية الأولى فى ألمانيا، والتى فيها أكبر عدد من هؤلاء الأطفال، وكيف يعيش هؤلاء فى بيئة غير بيئة آبائهم حيث السمك هو الغذاء الرئيسى، وكيف يكون التركيب الكيميائى للدهنيات ونسبها فى دمهم.

وعلى الرغم من الجهد الكبير الذى بذلته هذه الدكتورة فى دراستها إلا أن الأساتذة لم يرحموها من التعليقات، ولم يكن طابع هذه التعليقات إلا مثل تلك التى يلقيها الأساتذة فى مناقشة الرسائل والأطروحات العلمية.. هل لاحظت الفرق بين هذه النسب فى الصيف والشتاء؟ لأن فواكه الشتاء فيها نسبة أكبر من السكريات!، هل تلاحظين قيمة الفرق بين الذكور والإناث.. إلخ.

❑

أما زميلى فى الحجرة فهو عالم ألمانى من هايدلبرج، وقد جاء بالقطار، ويعتزم العودة به وقد درس العلوم حتى حصل على الدكتوراه فى فلسفة العلوم (PhD.) فى الكيمياء الحيوية ثم هو يعمل الآن فى قسم الأمراض الباطنة.. لم يتزوج ولم يفكر بعد فى الزواج، كان كثيراً ما يخلو إلىّ ليحدثنى عن غرائب الطليان.. كان من الشباب لا نقول المستهترين ولكن الذين يتركون الأمور تسير كما يحب لها من يسيرونها. وكان من عادته أن يذهب كل عصر فيأخذ حماماً للشمس بعد السباحة ثم يعود ويأخذ حماماً فى الحجرة..

كان يبكر فى نومه على عادة الألمان فإذا أصابنى القلق وأردت القراءة اضطررت للبقاء خارج الحجرة مع الناموس ينهش لحمى.

لم يكن كثير الترتيب والتدبير إنما هو متوكل على الله.. حقيبته ضخمة ولكنه لم يستعمل منها إلا ربع ما فيها أو أقل.. والباقى احتياطى على عادة الألمان.

❑

من بلجيكا أستاذة وتلميذها، وفتاة، كان الجميع يأسفون لحالها.. فهى عروس تزوجت منذ يوم أو يومين، وكان عليها أن تحضر هذه الندوة فى الوقت الذى يحضر زوجها ندوة أخرى فى بلد آخر، ثم يلتقيان بعد أسبوع فى اليونان ليقضيا شهر العسل أو شيئاً من هذا القبيل، كل هذا جميل ومحتمل وظريف، ولكن المأساة أنها جاءت مع الخطوط الإيطالية حتى روما، فلما جاءت إلى حيث استلام الحقائب لم تجد حقيبتها، وكانت والدتها ـ على حد رواية زوجات الأساتذة الأمريكان ـ قد وضعت لها فى هذه الحقيبة كل ملابسها التى تساوى شيئاً كبيراً، فهو شهر العسل... (واسمع أوصاف السيدات لشهر العسل).. ومضى اليوم الأول والحقائب لا تجىء، والثانى حتى المساء فجاءت عاملة التليفون فى الفندق التى أوصاها الجميع بالموضوع تقول: إن الحقائب وصلت وسترسلها شركة أليطاليا بالقطار، وتسأل فى محطة القطار، لم يصل شىء، إلى أن كان يوم الخميس وذهب الأستاذ بلاتون لاستقبال زوجته وأحضر الحقائب معه.. لا تسل من أين أحضرها، وإنما اسأل عن الفرحة التى عمت الجميع لأمر هذه الفتاة المسكينة التى اضطرت فى أول ليلة لها أن تغسل ثيابها الخفافى (السفارى) التى أتت بها، لتجف حتى الصباح، ثم لبستها. فلما كنا فى نزهة القارب البحرى ونزل الجميع يسبحون، بقيت على الشاطىء، وكان على أليطاليا وزرها، وعزّ على الأستاذ مالينوف ألا تسبح الفتاة الشابة صحيحة الجسم وتتمتع بهذا الماء معتدل الحرارة، فشجعها على أن ترمى نفسها فى الماء بالثياب التى ليس عندها غيرها، على أن يعطيها هو ثياباً من

عنده (أو من عند زوجته) عند رجوعنا.. ولم تكذّب خبراً كما يقولون، وضعت سلسلتها وساعتها فى حقيبة يدها وتركتها على صخرة وانطلقت.. فلما عادت إلى المركب، وقضينا ساعة حتى عدنا كانت ملابسها قد جفت فلم تعد بحاجة إلى ملابس الدكتور مالينوف. فلما أتى وقت العشاء وكانت حقيبتها قد عادت مع الدكتور بلاتون لم تعد فى حاجة كذلك إلى ملابسها التى جفت، وإنما ذهبت إلى حجرتها، ثم عادت فظهرت علينا فى أبهى حلة!!.

❑

أما زميلنا الشاب الهولندى فقد انتهى لتوه من دراسة الماجستير فى علم الحيوان. لغته ضعيفة جداً، وهو كثير الغمز بعينيه، رفيع كالهولنديين، لونه أبيض على أصفر، ولكنه خفيف الدم يقول عن أستاذته إنها تعمل أشياء كثيرة جداً.. يكمل دراسة الطب على نحو ما يسمى عندنا ببكالوريوس الطب بعد بكالوريوس التشريح والفسيولوجيا، ذلك أن النظام فى التعليم الطبى عندهم تقريباً له بعض خصائص النظام الأمريكى.

ماراتيا .إيطاليا ،١٩٨٣



6

فى بريطانيا العظمى

في بريطانيا العظمى

أروع ما صادفني في تلك الطائرة البريطانية [التي أقلتنا من روما إلى لندن والتي لم يكن بها كرسي واحد خالٍ ولا شيء من تلك الأشياء التي قد تجذبك إلى هذه الشركة التي أركب طائراتها للمرة الأولى] هو ما أتيح لي من مشاهدة سويسرا كلها على الطبيعة الحية المعبرة.

هل تتصور جبال سويسرا يتوجها الجليد الأبيض فوق لونها الرمادي بدرجاته المختلفة على درجاتها المختلفة ثم فيما بين هذه الجبال الشامخة ترى الوادي لا نقول الفسيح كوادينا ولكن الضيق الأخضر وفي وسطه هذا الشريط على الماء الأبيض المتلألىء..

هل تذكر هذا المنظر المصور ببراعة على اللوحات التي تنتشر في مكاتب السياحة السويسرية؟ أو في شركة سويس إير أو مطاعمها.. هذا ما أتاحته لنا الطائرة الإنجليزية في ظهر ذلك اليوم الصافي من الغيوم.

ما كاد الطاقم يلمح هذا المنظر الجميل، إلا وزفوا لنا فى أرجاء الطائرة هذا النبأ السعيد، وانصرفت فتحركت إلى فراغ خلف المقعد الأخير فى القسم الأوسط من الطائرة، وكانوا قد خزنوا فى هذا الفراغ بعض الأغطية فاتخذت منها مقعداً وجلست مستغرقاً انظر وانظر .. هذه هى متعة النظر الحقيقية نصف ساعة أو تزيد.

قالت لى السيدة الأمريكية التى كانت تجلس إلى جوار زوجها فى المقعد الذى أمامى.. إنه يوم خاص بك ياسيدى.. وأردفت تقول: إنها كثيرة السفر، ولم تسعد بهذا المنظر أبداً!! فالعادة أن تكون الغيوم والظلام.

لم يفتأ الركاب يخرجون كاميراتهم ويلتقطون المنظر يسجلونه على أفلام ملونة أو غير ملونة.. وأظن أنى خزنته على مؤخرة مخى، ومع هذا فانى لم أستطع أن أسجله على هذا الورق على نحو ما ينبغى لجماله وجلاله.

❑

لا ينبغى أن أهمل الحديث عن هذه الفكرة الفنية الجميلة التى سيطرت على عقل مصمم الديكور فى مطار لندن حين زين الحوائط بنماذج من الزخرفة فى بلاد العالم المختلفة: فى العصور المختلفة فى اليونان قبل الميلاد، وفى مصر قبل التاريخ، وفى المكسيك فى قرن من القرون، وفى أسبانيا الأندلسية، وفى فرنسا فى القرن السابع عشر، وهكذا تتوالى أمام عينيك الناظرة إلى الحائط على جنب وأنت تسير على الممر الكهربائى المتحرك نماذج معبرة عن الحضارات المتتالية عبر الزمان على الأرض التى عمرها الله بالإنسان.

ولكن الشيء الذى قد لا يعجبك فى جزء آخر من مطار لندن هو تلك الأختام المختلفة التى رسموا بصمتها على الحائط.. هل لأن الختم يرتبط فى ذهننا بالروتين الذى لا يعجبنا، والقيد الذى لابد لنا منه لنحصل على حرية الحركة فى أمر ما؟ لا أعرف..

أما قولهم إن مطار لندن هو مطار العالم فأمر قد لا يستدعى المناقشة، وحق له أن يفخر بنفسه، وإنى لأعتقد أن من خير الأمور أن نبعث بطلاب الهندسة (وليكن فى المراحل المتقدمة من دراساتهم) إلى مثل هذه المنشآت الواسعة الشاسعة معقدة التركيب، ولنتركهم يتأملون فيها اليوم بعد اليوم ليحللوا كيف تتكون مثل هذه المدن المتكاملة.

❑

نعم إن مطارات العالم الحديثة فى أوربا وأمريكا وفى الخليج العربى كذلك ليست إلا مدناً متكاملة... ولقد قرأت على إحدى الحوائط أن مطار هيثرو سيكون له طرف رابع (Terminal 4) بعد كذا عام، وأن هيئة المترو تعتزم أن تسيِّر المترو إلى هذه النهاية، وتعتزم أن يكون ذلك مواكباً فى الوقت ذاته لافتتاح الطرف الرابع من المطار، ولهذا فهى تعتذر للناس عن الإزعاج الذى قد تسببه لركاب المترو فى وقت معين من آخر الليل (فقط) حين تطلب إليهم أن يتركوا محطة كذا إلى محطة كذا ليتيحوا الفرصة أمام شركة المقاولات من أجل العمل فى إنشاء جسم النفق فى هذه المسافة فى تلك الفترة، وسوف تكون فى انتظارهم أتوبيسات تقوم بخدمتهم فى هذه المسافة، من غير ضياع لأى وقت، ولا تحميل لميزانية وقتهم أو جيوبهم بوقت أو أجر إضافى..

هل تملك بعد أن تلمس تقديرهم لوقتك إلا أن تدعو لهم الله أن يوفقهم ويرزقهم ويرزقنا النجاح.

على أن مما يسعدك من أمر مترو لندن أن مساحة الإعلانات على جدراته الداخلية كلها مشغولة، وأنه ليس هناك فراغ على الإطلاق، وذلك على غير ما هو الحال فى مترو واشنطون على سبيل المثال!!.

ولا أظن أن مترو لندن قد وصل إلى هذا التشبع بكثرة المعلنين، مع أنه لاشك فى

ذلك، ولكن جانباً من إعلانات مترو لندن ليست إعلانات مدفوعة الثمن، إنما هى **خدمة إعلامية** من هيئة المترو التى تحدثك عن أن الحرامية يحبون الزحام فخذ حذرك.. أو أن.. إلخ.

أما أغلب الإعلانات فى مترو لندن وفى مطار لندن فهى عن السوق الحرة وألطفها أو أخفها دماً هو ذلك الذى يقول كيف تهرب من الضرائب بطريقة قانونية؟؟ الجواب: السوق الحرة. فزجاجة الخمر لا تزال ٢,٩٩ إسترينى. هذا هو الإعلان بحروفه.

❑

هل لك أن تتوجه معى إلى حيث عقدت الندوة التى شاركت فيها. أستأذنك فى أن أبدأ بالجغرافيا التاريخية.

مقاطعة كمبريا "Cumbria" لم توجد إلا منذ سنوات قليلة، باتحاد أجزاء من ثلاث مقاطعات، وهى تمثل شمال إنجلترا على حدودها مع أسكتلندا (وكل هذا فى إطار بريطانيا العظمى) إذن فكمبريا هى باختصار أقصى شمال إنجلترا من ناحية الغرب.

وإلى اليوم لا تزال نسبة الكثافة السكانية فى هذه المنطقة منخفضة، فليس هناك شىء ذو قدر كبير من الموارد الطبيعية، ولا الصناعات الكبرى فى المنطقة.

ومع هذا فإنك لا تستطيع أن تحكم بأن هذه منطقة فقيرة، أو أن ليس أمامها مستقبل فجوها المعتدل إلى حد كبير بالمقارنة بأجواء أخرى، وما حباها الله به من طبيعة وبحيرات وجبال ترتفع بين هذه البحيرات المتوالية، كل أولئك رصيد ضخم لمستقبل كمبريا على الرغم من هذه الأراجيف التى لاتفتأ تنتشر عن عجز بريطانيا بسبب الفقر عن الاستثمار المتسع فى المستقبل.

من الضرورى أن تعرف أن هناك كمبريا أخرى فى ويلز، ولكن الفرق بين

الاثنتين فى الحرف الثانى فكمبريا الشمال بحرف (u) أما كمبريا التى فى ويلز فبحرف (a) = cambria .

❑

قطعان الأغنام تنتشر هنا فى المراعى، وقد ازدهرت تبعًا لذلك صناعة الصوف اليدوى أو ذى التكنيك الصناعى البسيط (أى صناعات منزلية صغيرة) وهم هنا يسمون الأغنام بأسماء مختلفة تبعاً لأطوار حياتها البيولوجية كما يفعل العرب بقولهم: كبش وفحل... إلخ، والصحة والعافية والامتلاء هى السمة الغالبة على أغنام كمبريا.

على أنه من الطريف أن نذكر لك أن مجموعات من السكان الذين يقطنون هذه المنطقة والذين يقطنون أسكتلندا فى أعلاها، لا يزالون إلى اليوم يعيشون فى مجتمعات منعزلة عمن حولهم، وهم يتكلمون لغاتهم المحلية القديمة التى تنتمى إلى اللغات الإسكندنافية، وقد حاولت الحكومة ولا تزال تحاول مراراً أن تثنيهم عن هذا وأن تساعدهم على الاندماج فى اللغة الإنجليزية، ولكن دون جدوى!!

هؤلاء إذاً هم الإنجليز الذين لا يتكلمون الإنجليزية!!.

❑

تضم كمبريا أكبر الحدائق القومية (National parks) الموجودة فى كل إنجلترا، وهى عشر حدائق قومية تمثل ٩ ٪ من مساحة الدولة كلها، وقد اتيحت لى الفرصة لزيارة هذه الحديقة، واطلعت على التاريخ القومى لإنشاء هذه الحدائق...

لا يسعك إلا أن تحنى رأسك بالتقدير لعقليات العلماء الإنجليز المستقبلية التى تنبهت إلى أهمية هذا الطراز من حماية البيئة منذ هذا الزمن البعيد (هذا من دون أن تحزن أو تبتئس من أننا لا ننجح حتى اليوم فى صيانة حدائق الحيوان، والأسماك، والأورمان للنبات التى ورثناها جميلة زاهية).. على أنهم وصلوا إلى تعريف الحدائق

القومية عام ١٩٤٤، وهو التعريف الذى تجده منسوباً إلى صاحبه ومكتوباً على لوح من الخشب بين ألواح كثيرة فى صدر القاعة المركزية فى مدخل الحديقة التى تضم قاعات للسينما تحكى تاريخها وأهميتها، وتُذَكِّر «القادمين» دائماً فإن الذكرى تنفع المؤمنين، كما يضم المدخل أيضاً مركزاً للهدايا التذكارية اللطيفة يمكنك أن تشترى منه ما يذكرك دائماً بهذه الزيارة، ومع هذا فإن هذا المركز فى حد ذاته يدل دلالة عميقة على أهمية الثقافة فى حياة الإنجليز، ففيه ركن كبير للكتب (وبعضها بالطبع كتب للتسالى) ولكن النسبة الغالبة كتب علم وكتب ثقافة علمية، وموسوعات فيها الطيور مرسومة ومسماة وعليها نبذة تتيح لك أو لابنك أو لابنتك كل المعلومات الأساسية عن الطائر، أو عن الحيوان فى كتاب الحيوان.. إلخ.

وأتأمل فى قدرة هذه الموسوعات على التعليم والتثقيف وتنمية العقل والوجدان والذوق: موسوعات مبسطة مرتبة تتيح للعقل الصغير أن ينمو وهو يعرف الترتيب والتقسيم بالإضافة إلى المعرفة الأصلية، وكل هذا بالإضافة إلى المتعة الحقيقية مع صفحات كتابٍ هو تحفة فنية بالإضافة إلى متعة الاقتناء!!، متعات فوق متعات بثلاثة أو أربعة جنيهات هى ثمن وجبة طعام بسيطة على منضدة فى الناحية الأخرى من ركن الكتب، أو هى ثمن خمسة أو عشرة كروت بوستال!!.

هل الثقافة إذاً وظيفة وزير الثقافة أو هيئة الكتاب؟ أو هيئة الآثار؟ أو المجلس الأعلى للثقافة؟ أم هى وظيفة كل فرد من أفراد المجتمع تُسند إليه المسئولية عن ركن من أركان المجتمع؟

يبقى السؤال مرهوناً بالفهم؟.

❑

أما هذا البلد الذى يضم المعهد الذى تنعق فيه ندوتنا «جرانج أوفر ساندز» فبلد صغير ولم يأخذ وضعه كبلد إلا منذ عهد قريب، وأطرف ما فيه هو شكل الهرم

السكانى (على حد تعبير علماء الديموجرافيا) فكبار السن فيه هم الأغلبية الساحقة لأنه يتكون أساساً من أولئك المحالين إلى التقاعد من العاملين فى المناطق الصناعية القريبة (ما نشستر)، الذين يرحلون إلى هذه القرية الهادئة ذات المناخ المعتدل وذات هذا الطابع السكانى اللطيف، ومعدل الوفيات فى هذه القرية تسعة أضعاف معدل المواليد!!، ومع هذا يأتى إلى هذا البلد كل عام قوم آخرون.. وهكذا فإن معدل الزيادة السكانية فيه ثابت! وهو صفر تقريباً! فمعدل الوفيات العالى لا يستطيع معدل المواليد أن يعوضه، ولكن توافد السكان الجدد يوازنه.

❑

كان علينا فى هذه الورشة أن نبحث بحكم ثقافتنا عن منظور جديد يمثل مستقبل البيئة فى الثمانينات التى بدأناها عن قرب، ولم يكن هذا بالأمر الصعب إذا ما تناولنا المسألة نقطة نقطة وأبدينا آراءنا فيها بأوراق عمل أو حتى بمناقشات مستفيضة أو ببحوث محددة الاتجاه، ولكن الاستاذين الرئيسيين أكرمهما الله كانا قد وضعا لهذا الأمر خطة أخرى تستغل إمكانات العقل الالكترونى على أحسن ما يكون الاستغلال.

ومن دون أن أجعل القارئ يمل الكلام فى هذه المسألة التى قد لا تخصه على الإطلاق باعتبارها مجرد وسيلة تنظيم لمؤتمر ما عن مسألة فرعية جداً وهامشية جداً بالنسبة له، إلا أن ضميرى يأبى علىّ أن أتحدث عن كل ما تحدثت عنه وأترك هذه النقطة.

صمم الأستاذان المسائل على النحو الذى يجعل كل واحد منا يبدأ فيذكر المفاهيم التى يراها هامة فى البيئة والحياة البيئية كالعلاقات البيئية مثلا: بدءاً من الحب والكره ومرورا بالتكافل والتطفل والتزاوج... إلخ أو الخصائص المميزة للأجناس: كالطعام والشراب والتكاثر والهجرة.. إلخ أو كالمقومات الأساسية للحياة.. إلخ.

فإذا انتهينا على مدى ساعة ونصف من ذكر ما يزيد على خمسين ومائتى مدخل من هذه المداخل خرج علينا الكمبيوتر الذى كان يسجلها بأسمائها مرتبة ترتيباً أبجديا، ثم أخذنا ننظر فى أمر هذه المداخل، وكيف يمكن لنا أن نصوغ التفاعلات بينها فى الحاضر والمستقبل.

كانت المسألة إذاً أن نضرب كما يقولون أى عنصر بآخر، فتتضح لنا من آفاق التفكير أو لا تتضح آفاق جديدة نسجلها.. ثم كنا ننفق الوقت بعد هذا فى تنظيمها بحيث تخرج لنا هذه التباديل أفكاراً ممتازة، وهو ما حدث بالفعل.

❑

فإذا جعلت مدخل «الهجرة» يتفاعل مع مدخل «التكاثر» مثلاً، فإنك واجد أن الهجرة قد تكون من أجل التكاثر أو أن التكاثر قد يشجع على الهجرة كما يحدث اليوم فى عائلات مصرية ترحب باغتراب أبنائها إذا ما كانت فيهم وفرة... إلى آخر هذا الطراز من الاستنتاجات ومن الأفكار التلقائية التى قد تجدها تجيئك مباشرة، من غير جهد.. وفيها بالطبع كثير جداً من الأفكار التافهة والأخرى التى قد تبدو تافهة!

ولم يكن هذا ليعوقنا عن الاستمرار فى طرح ما فتح الله به علينا من أفكار وتسجيلها على الفور ثم التأمل فيها بعد قليل لنصفيها.. ثم لنؤازر بين الأفكار والأفكار Integration حتى تخرج لنا بعض الصور العامة.

لم تكن المسألة بهذه السهولة قط، وإنما هو تبسيط شديد جداً لما أتممناه واجتهدنا فيه من عمل أخذ ما أخذَ من وقت سبعة عشر أو ثمانية عشر عالماً (إذا جاز لى أن أعد نفسى واحداً) وكان وقتاً متصلا ليس فيه إلا الجد الشديد.

على أن الذى لا يمكننى أن أنكره أن حداثة سنى كانت خير معوان لى على المكانة الممتازة التى تهيأت لى بين هؤلاء الأفذاذ، وبخاصة إذا علمنا أن الكمبيوتر

كان يحتاج فهما سريعاً من المتعامل معه الذى ينبغى له إذا أراد أن ينجح فى تعامله ألا يفرض على عقله نفسه أية مسبقات، وأن يطيع الحقائق كما هى!

❑

نجم مجموعتنا كلها رجل كله نشاط وحيوية وخبرة ومع هذا فهو فوق الستين، الأستاذ جيفرس.

بدأ هذا العالم الكبير حياته كموظف بسيط فى الغابات، لم يكن قد حصل على الدرجة الجامعية الأولى (البكالوريوس أو الليسانس)، وعندما بدأ الكمبيوتر يأخذ طريقه إلى الحياة الدنيا، كان من أوائل الذين اهتموا به ودرسوه وعملوا عليه حين كان أولئك الذين لهم هذه العلاقة بالكمبيوتر يعدون على أصابع اليد الواحدة، وأحرز الأستاذ جيفرس تقدماً كبيراً فى هذا المجال، وتأسس مجلس الكمبيوتر البريطانى (أو جمعية الكمبيوتر) فكان من أعضائه البارزين، وصارت الشهادات تُمنح فى هذا التخصص الجديد، وحصل جيفرس على هذه الشهادة، التى اعتبرت فيما بعد مساوية للدرجة الجامعية.

ولم يكن من الصعب على مثل هذا الرجل بمثل هذه العقلية، وهذه القراءات المتعمقة فى علم النفس والفلسفة وفلسفة العلوم والفكر الإنسانى أن يصل إلى القمة فى بلد لا يجعل الوصول إلى القمة مرهوناً بالدرجات الجامعية التى حصل عليها الفرد.. هذا بلد يتيح للخبرة والعقلية الممتازة أن تتبوأ مكانها المرموق لتبنى منه وتعلم الأجيال التالية، ولكن هناك بلادا ـ نعرفها جيداً ـ تربط قمة الوظائف (بل قاعدتها) بالشهادات الجامعية، وتسعّر الشهادات، وترى أن فى هذا قمة العدالة بين العاملين! ثم تنتظر منهم العمل!!، بينما هم يظنون ـ ولهم الحق ـ أنهم قد أدوا أعمالهم منذ زمن بعيد، حين ذاكروا وحصلوا على الشهادات التى تُقاس بها مرتباتهم!!.

كان الأستاذ جيفرس هو رئيس المؤتمر وكان رجلاً قصيراً ولكنه ممتلىء، ولم يكن ممتلىء الجسم فحسب، ولكنه كان يحظى بقدر وافر أيضاً من الصحة والعافية، والذكاء، والقدرة على المحاضرة، وإدارة الجلسات، بدأ اليوم الأول فى الصباح بثياب عادية، حتى إذا جاء المساء كان فى أبهى حلة، من دون أن تحس أنه غاب عن القاعة، وهكذا كان ينتقل أيضاً بين الموضوعات والأفكار، يترك النقاش يحتدم، أو بعبارة أدق يتوه حتى تحس أنه لابد أن يقوده الرئيس إلى نقطة معينة، بعد إحساسك هذا بدقيقة أو بدقيقتين تجده يفعل ما يجب أن يفعله الرئيس، وهذه هى حنكة إدارة الجلسات، نوع من الدكتاتورية الواعية الكامنة التى لا تظهر للعيان، ولكن تهفو إليها القلوب، وتتقبلها العقول.

كان الأستاذ جيفرس يدرك هذا من نفسه، فكانت ثقته بنفسه من الأمور التى لا تحتاج إلى إثبات أو تحليل أو تعليل، وحين كان يتكلم عن الجماعات والاجتماعات ضمن حديثه عن تنظيم الإنسان للأفكار والفلسفات، جاء ذكر الاجتماعات ومجموعات العمل، فذكر ما أبان عن أنه أجاد درس إدارة الاجتماعات نظرياً، وهكذا لم تكن حكمته وحنكته وليدتى التجربة فحسب.

تسألنى ما هو الفرق بين الحالتين، أظنك تدرك الفرق بين المهندس الميكانيكى الذى يتولى إصلاح أمر السيارة التى عرف خباياها قبل أن يكون مهندساً، وبين الميكانيكى الماهر صنعته هكذا، فحسب، ومهارته من صنعته فحسب.

❑

أما الرئيس الثانى الدكتور بيل هل فهو الدينامو الحقيقى ومدير محطة المعهد، وهو شاب تعدى الأربعين من عمره، ولكنك قد لا تدرك ذلك السن من شكله ولا من نشاطه الظاهر، وهو طويل القامة، مبتسم الوجه، أوردته بارزة (ناتئة) من تحت عضلات يديه، ولكنه بروز (أو نتوء) أوردة الرياضيين لا بروز أوردة أصحاب

النحافة!، يميل جلد وجهه إلى الحمرة، وعيناه تميلان إلى الخضرة، له ابنان أكبرهما فى العام الثامن عشر من عمره، قُبل لتوّه ليدرس فى كمبردج لدرجة جامعية فى العلوم، رأيته مع والده فى أمسية اليوم الأول، وهما يجلسان يحتسيان الشراب، اندهش عندما سألته: أهذا ابنك؟ مع أنه لم يكن من الصعب علىّ أن أدرك ذلك من شكل الابن، ولكن قد يكون من الصعب أن تدرك ذلك من جلستهما مع بعضهما إذا لم تكن عندك خبرة بأصول التربية الحديثة التى تقول ما يعبر عنه مثلنا العربى فى أبسط وأبلغ صور التعبير «إن كبر ابنك خاويه»، أو ما يعبر عنه بأبلغ وأدق وأكثر عبارات اللغة تهذيباً حديث رسول الله ﷺ المعروف فى شأن مراحل تربية الأبناء، ولم يكن من السهل أن تدرك أن لهذا العالم الشاب ابناً مثل هذا الفتى فى مثل هذه السن وإنما كان الأقرب أن تتوقع أنه لم يتزوج بعد!...

❑

كان ستيفن (وهذا هو اسم الابن) شاباً يافعاً، تظهر على محياه على حد تعبير كتابنا - علامات النجابة، وقد حاولت أن أوجهه إلى دراسة الطب، واستعنت على ذلك بالأمريكان، وتركتهم يحدثونه عن مكانة الطبيب هناك وأمواله ووجاهته، ولكن يبدو أن الوقت كان متأخراً، فقد عاد الفتى كما أخبرنى والده من شركة الكمبيوتر التى اشترى منها كمبيوتره الشخصى الصغير، وإذاً فقد كان الفتى فى عزمه على دراسة الفيزياء جاداً، وفى تخطيطه لمستقبله أكثر جدية. تسألنى كم من أطبائنا الشبان يملكون أو يعتزمون شراء الكمبيوتر الشخصى؟.. اسأل وقل لى!!.

كان نظام العمل يقتضينا أن ننتهى من إفطارنا قبل التاسعة، حيث تبدأ الجلسة الأولى فى التاسعة تماماً وتستمر حتى العاشرة والنصف، فننصرف بضع خطوات لتناول القهوة، فإذا انتهينا من ذلك انصرفنا مرة ثانية فى الحادية عشرة إلى العمل حتى الثانية عشرة والنصف، ونعود فى الثانية للعمل حتى الثالثة ونصف فننصرف

بضع خطوات لتناول الشاى ونعود لنبدأ الجلسة الرابعة تماماً وهذه ربما تطول حتى الساعة السابعة.. ثم نتناول العشاء فى السابعة والنصف وهو الوجبة الأساسية.

كان علينا أن نعمل كثيراً، ومع هذا كان يتاح لنا طعام كثير، لم نكن بقادرين على أن نبلع نصفه، وكنت على طبيعتى السيئة فى التعفف عن كثير جداً من أصناف الطعام، ومع هذا كان يبقى لى بعد كل ما أرفض قدر كبير من البدائل التى تكفى حاجتى وتزيد، وكنا فى بداية أيامنا نحاول أن نأكل، ثم لما حادثنا بعضنا عن وفرة الطعام، بدأنا نحس أنه يجدر بنا ألا نأكل، حتى جاء المدير المسئول عن المطعم ذات صباح يسألنا عن طبق الإفطار الذى نريده (كان هذا بعد القهوة وبعد سلاطة الفواكه) فاعتذرنا جميعاً عن أى طعام إلا واحداً!!.

❑

لا تستطيع أن تغض النظر عن ملاحظة أن الإنجليز يعانون من شىء من الفقر أو الفقر النسبى طبعاً إذا ما قارنتهم بألمانيا الغربية أو الولايات المتحدة الأمريكية، تستطيع أن تلمس هذا فى حجرات فنادقهم وحماماتهم، وأن تلحظ أن الأطقم قديمة، وصحيح أنها تُصان جيداً ولكن هذا لا يمنع أن تقرر أو أن تدرك أنها قديمة، وكذلك الطُرقات واللوحات التى عليها، وصحيح أن كل الأمور تسير أقرب ما يكون إلى الكمال ولكن مع شىء من الجهد الكثير يبذلونه.

قد أقرب لك الصورة فأقول هل ترى رجلاً محافظاً عنده سيارة عمرها عشر سنوات، يُعنَى بها ويصونها ويحافظ عليها ولا يستعملها كثيراً، وليس فيها عيب واحد! ولكنها مع ذلك لن تكون على نفس قدم المساواة مع السيارات الأخرى التى خرجت من مصنعها هذا العام.

وهكذا حـال الإنجليـز أيضـاً فى سيـاراتهم، كـثيـر من علمـائهم ورجـالهم البـارزين يحتفظون بسيارات ممتازة جداً، ولكنها تبلغ من العمر سبع سنوات أو عشر سنوات، وتسألهم، فيقولون: إنهم لا يقدرون على أثمان الجديدة.. قارن هذا مثلاً بحال ألمانيا الغربية التى سنت قانوناً يجعل إبقاء السيارة مع صاحبها بعد عامين أو ثلاثة أعوام شيئاً مكلفاً لأن عليه أن يصونها بكل أجزائها فى ورشة مكلفة وأن يثبت فعاليتها المثلى وأن يدفع عليـهـا ضـرائب باهظة.. وكل هذا يدفع الألمان إلى أن يُحـدثوا مـوديلات سياراتهم دائماً، فهى أوفر لهم، ثم تذهب سياراتهم (القديمة فى نظر قانونهم) الجديدة فى نظر كل الدنيا إلى كثير من بلاد الدنيا كيما تسعد بها وتنعم! ويتسابق بها شبابنا على الطرق!.

❑

أما الأستاذ لاكانى، فرجل من رجال الإحصاء، كثير الكلام، ولكن كلامه مع ذلك يحمل كثيراً من المعانى، ولهذا فإن الرأى فى كثرة كلامه يختلف، بين تقدير البعض، واعتراض البعض، على أن كلاً من الفريقين يود بصدق لو أنه قلل هذا الكلام.

يؤمن الأستاذ لاكانى بما يعتقد، ويود لو آمن الناس بما يعتقده، ولكن هيهات للناس أن يؤمنوا فى خمس دقائق بما آمن به رجل مثله بعد خمسين عاماً.

كثيراً مـا تقوده سلسلة أفكاره اللفظية إلى كثير من الصواب العلمى، فيدهش هو نفسه قبل أن يدهش مشاركوه، ألقى علينا ذات ليلة حديثاً عن الديفرستى (Diversity) وأكثر من استعمال المعادلات الرياضية وترتيبها على بعضها بالقدر الذى يثير الأعصاب. ثم حاول فى نهاية محاضرته أن يبسط الأمور (كان قد أعد المحاضرة هكذا سلفاً.. حتى لا يتبادر إلى الذهن أنه حاول أن يبسط بعدما أحس بشعور الحاضرين بالتعقيد)، فأخرج لنا من كيس كان معه علبة بسكويت وعلبة كيك، وظننا

أنه سيؤلف قلوبنا بهذا الطعام بعد محاضرته، ولكنه أخرج ورقة ورسم عليها رأس إنسان، ووضعها على البرجكتور وجعل من البسكويت فمه وأنفه وإحدى العينين، ثم وضع الكيكة فى مكان العين الأخرى، وقال: انظروا إلى الصورة تجدوا ظلاً، أنتم تظنون أن العينين شىء واحد لأن ظلهما واحد.. على حين أن الحقيقة كما ترونها أن هذه بسكوتة مسطحة، وأن هذه كيكة لها أبعاد.. ولكن الظل المتطابق قد يوحى بأنهما شىء واحد!!.

حين انتهى الأستاذ لاكانى من محاضرته كان أول تعليق هو تعليق الدكتور زوزى الإيطالى الذى قال له: أعتقد ياسيدى أن وسائلك التعليمية السمعية البصرية Audio visual كانت مكلفة جداً.

❑

لا تسألنى عن هذا النور الذى يغمر وجه الدكتور هانز الألمانى، رجل طيب بكل ما قد تعنى الكلمة، هادىء الطبع، خفيض الصوت، دمث الأخلاق، قليل التعليقات، فإذا علق انشرحت الصدور لتعليقه هذا إذا كنا على مائدة الطعام أو وافقت العقول على أفكاره إذا كنا على مائدة العمل.

قادنا الحديث إلى التدخين، فأظهر لى عظيم التقدير لأنى لم أحاول التدخين من قبل، وقال إنه ظل يدخن طيلة ١٥ عاماً ثم اكتشف أن هذا كان منتهى الغباء منه!.

❑

أما صديقى العظيم الرجل التركى الطيب الدكتور مصطفى أوزو (المسلم الثانى فى المؤتمر) فكانت له لغة أقرب ما تكون إلى لغة ممثلينا الذين يقومون بدور الأتراك فى أفلامنا ومسلسلاتنا المصرية الشهرية، ولقد كنت فى قرارة نفسى أعجب من هذه

اللغة، ولا أفهم من أين أتوا بهذه اللكنة الثقيلة؟ خصوصاً وقد رأيت كثيرا من الأتراك من قبل فلم ألحظ على لغتهم هذه اللكنة، وكنت أعتقد أن الممثلين العرب قد فعلوا بلغة الأتراك بعض ما فعلوه بلغة الصعايدة، ولكنى بعد ثلاثة أو أربعة أيام من الحديث والجلوس إلى زميلنا التركى آمنت أنى كنت أظلم أهل الفن فى مصر.

حدثنى الدكتور مصطفى عن القروش التركية القديمة. كانت الليرة مائة قرش، مع أن الليرة التركية نفسها لا وجود لها اليوم ولا تستعمل، وأصغر عملاتهم خمس ليرات تكفى بالكاد لشراء مشط كبريت. والدولار يساوى ٢٥٠ ليرة تقريباً، فتصور القرش التركى هذا الذى يساوى واحدا على خمسة وعشرين ألف جزء من الدولار!! كنت أعجب لليرة الإيطالية التى تساوى سبعة أعشار أو ستة أعشار البنس الأمريكى، فوجدت أن الليرة التركية تساوى أربعة أعشار البنس الأمريكى، وكان لها أصول أو أبناء مائة بالكمال من القروش !!.

على أن الغريب والطريف من أمر العملة التركية هو إفراطهم فى منحها حقها من خام ورق البنكنوت، والمائة ليرة كبيرة الحجم جداً ولكنها لا تساوى نصف دولار، والألف ليرة فى حجم ضعف ورقة العملة الأمريكية (التى قد تكون ألف دولار) ولكنها لا تساوى إلا أربعة دولارات.. ولعلك الآن تؤمن أن المثل القائل بأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى قد لا يستحق من القيمة ألف ليرة تركية!!.

ولكن ألطف ما تركه الزميل التركى فينا من أثر كانت تلك النادرة التى قصها علينا حين فتحوا الباب ونحن نعمل على الكمبيوتر المجاور له، حتى يزيل رائحة التدخين، وانقسمنا جميعاً إلى فريق محبذٍ لفتح الباب، وفريق آخر محبذٍ لإعادة إغلاقه.. حين ذاك قص علينا التركى أن امرأتين كانتا فى أتوبيس، وحدث نفس الموقف، فقالت إحداهما: إذا لم يفتح الشباك فسوف أموت، وقالت الأخرى: إذا لم يغلق الشباك فسوف

أموت، فقال أحد الركاب: حسناً نفتح الشباك فتموت أولاهما، ثم نعود فنغلقه فتموت الأخرى فنتخلص من امرأتين!!، مكسب كبير [فى رأيه الذى أنا ضده تماماً] أن تتخلص من امرأتين إلى الأبد!! وفى خمس دقائق فقط!!.

❑

لابد أن أقطع هذا الحديث عن العلماء الذين شاركوا فى ورشة العمل هذه كى أحدثك ولو لفترة قصيرة عن تجربتنا مع العمل على أجهزة الكمبيوتر.

كنا فى إحدى المجموعات الصغيرة، وحدث خلاف مطول بينى وبين أحد أفراد المجموعة.

فيما كنا نعمل على الكمبيوتر، جاءتنا إشارة من ذلك الجهاز إلى أن عنصرين من العناصر يتشابهان على الأبنية التى بنيناها فى ٩٣ ٪ من الأحوال. وكان معنى ذلك كما فهمت، أن نبحث لهذين العنصرين عن [بناء] يفرق بينهما.. هكذا فهمت، هكذا كانت الحقيقة، وشرحت لزميلنا الإيطالى ما يقصده الكمبيوتر ولكن بدون جدوى، وعلى طريقة الفتاكة الإيطالية أو المصرية سأل الكمبيوتر أن يكتب عليه بناء جديداً!!، فلم يمانع الكمبيوتر! وتقبل البناء!، ولم يكن فى البناء شىء جديد إلا أن زميلنا الإيطالى غيّر الدرجة التى كان أعطاها لأحد العناصر فقط فى محاولة منه (كما أتاح له عقله أن يفكر) أن يخدع الكمبيوتر أو يصرفه عن ملاحظاته التى خرج بها.. وكأنه لا يدرى أن الكمبيوتر لا يعطيك إلا ما تعطيه.. ولكنها فتاكة حتى مع الكمبيوتر الآلة التى لا تملك من أمر نفسها شيئاً!! ماذا كانت النتيجة: قال له الكمبيوتر إن البناء الجديد يتشابه مع البناء السابق فى ٩٣ ٪ فلم يجد صاحبنا ما يفعله، وضغط الزرار للكمبيوتر ليستمر، فجاءته نفس النتيجة السابقة ولكن مع اختلاف النسبة..

وظللت عشرين دقيقة مع العالم الإيطالى أقنعه أن معنى ذلك أن الكمبيوتر يريده أن يبحث إذاً عن بناء جديد يفرق بين هذين العنصرين بالذات، وهو لا يقتنع، إنما هو يريد من الكمبيوتر أن يعدد له ثلاثة عناصر من العناصر التى أعطاها هو نفسه للكمبيوتر والتى هى تحت يده ليختار بناء يفرق بينها..

أحاول أن أقنع زميلى أن الكمبيوتر فى مرحلة متقدمة يترك هذا الأسلوب ويسأل بأسلوب آخر تبعاً للحقائق التى صارت فيه والتى وضعها العالم الإيطالى بنفسه!!، وهو لا يقتنع إنما يريد أن يسأل الكمبيوتر بنفس الطريقة الأولى! ياسيدى ما الفرق؟. المهم أن تختار بناء جديداً وتستمر، وضغط الزرار، فسارت الأمور، ولكن عقل صاحبنا هناك فى جزيرة من الجزر الإيطالية يريد أن آتى له بأحد علماء الجزر البريطانية ليؤكد له ما أقول أو ليقول له الصواب!! وبمنتهى الثقة أحضرت له زميلنا البريطانى فيليب، وسيأتى الحديث عنه فيما بعد، وتركت العالم الإيطالى يسأل فسمع نفس الإجابة مغلفة بلهجة من الدهشة والاستنكار أن يغيب فهم هذه البديهة على المجموعة كلها، عندئذ لم نجد بدأ من أن نقول له الحقيقة وهى أن زميلنا الإيطالى فقط هو الذى كان لايريد أن يقتنع.

❑

قد يكون لى أن أدعى أننى أؤمن - ولعل هذا بفضل إيمانى بالله - أن المتعامل مع الحقائق العلمية [سواء فى جسم المريض أو على شاشة الكمبيوتر أو فى نتائج معمل الفيزياء أو الكيمياء، أو فى تشريح حيوان جديد على العلم، أو فى وصف سلالة من النبات، وحتى فى كتابة تاريخ بلد أو حرب أو علم من الأعلام بأسلوب علمى] لابد أن يؤمن كما أؤمن أن النجاح فى كل هذا مرهون بمدى إيمانك بما أمامك من حقائق، فإذا غلبت هذا الإيمان بالحقائق على اقتناعك الذكى (أو الغبى) بالمعلومات أو

الفروض التى فى بالك [أو ذهنك] حالفك النجاح، وإلا فلن يحالفك النجاح أبداً..

أؤمن بهذا كل الإيمان، ولعل الإيمان بالله هو خير ما يقوى هذا الإيمان، ولا أظن أن فى هذا دروشة إنما هى قمة الطموح إلى النجاح.

الإيمان بالغيب نعمة من نعم الله على عباده المؤمنين، لا يقدرها المرء إلا إذا انتابته أو صادفته الناحية المرضية منها، تماما كالصحة على رؤوس الأصحاء هى تاج لا يراه إلا المرضى.

❑

وأعود إلى الحديث عن زملائى فى هذه الندوة الممتازة.

أما العالم النرويجى فرجل فاضل، هادىء، دمث الأخلاق، خفيض الصوت، لا يبخل عليك حين يستمع إليك بالموافقة على ما تقول، وإبداء الملاحظات اللطيفة فى تواضع، يستمع كثيراً على عادة أهل الفكر من العلماء، ويتحدث بدقة على عادة أهل الصواب من العلماء، حركات يده محسوبة، وكذلك حركات وجهه، ولكن أصابعه وعضلات فمه ورقبته هى التى تقوم بمساعدته فى التعبير! كان قد زار القاهرة ضيفاً على جامعة عين شمس.. ويحدثك عن وقته فيها فلا يذكر إلا كل خير، فيعكس لك بذلك معدنه الأصيل.

❑

أما أندريكو وهو الإيطالى الثانى فأطيب من صاحبه، وأهدأ طبعاً، وأكثر تواضعاً وكثيراً ما يقول أثناء المناقشات إنه لا يستطيع التعبير عن أفكاره تماماً ـ يقصد أن يعبر عنها بالإنجليزية ـ وهو ملتح، قوى البنية، يبدو عليه أنه من أولئك الذين يأخذون العلم مهنة، ويعطونه بعض وقتهم، ثم يصير عندهم بعد ذلك متسع من الوقت للراحة أو

لممارسة الرياضة، ومع هذا فقد كان دائب العمل على الكمبيوتر طوال المؤتمر، وكان أكثر ما يكون ضحكاً على النكات اللطيفة التى يحكيها زميله الإيطالى. وقد كانت أبرز هذه النكات ثلاثا، واحدة على ألمانى، والثانية على يابانى، والثالثة على تركى.

❑

من بريطانيا البلد المضيف للندوة كان معنا ستة، الرئيسان، والدكتور فلييب الشاب الطيب، وكذلك صنوه - فى الطيبة - الدكتور جيرى، وهو متخصص فى بيئة النبات، ولا يزال يسكن إلى الجنوب من مانشستر ويسافر إلى معهده كل أسبوع حيث يقضى أيام الأسبوع الأولى فى أغلب الأحيان بعيداً عن أسرته المؤلفة من زوجته وولد صغير، وقد جاءته زوجته، وقضت معنا آخر أيام الأسبوع، ثم غادرت صباح الأحد لتريح حماتها من عناء رعاية ابنها، وقد حدثتنا أنها لا تعمل الآن، وأنها ترى صعوبة حقيقية فى الجمع بين ربابة البيت والعمل خارج البيت!! فلتسمع سيداتنا.

ولكن الدكتور فروزى أكد هذه الحقيقة فيما يتعلق بزوجه التى تفرغت هى الأخرى لرعاية ولديها التوأم البنت والصبى.

الطريف أيضاً من أمر الدكتور فروزى أنه يسجل صوت ابنه كل عام فى عيد ميلاده، وعنده الشريط الذى يحوى هذه الأصوات.. هكذا مضى الحديث بين ثلاثتنا حين كنا فى طريقنا إلى مسرح الغابة فى سيارة الدكتور جيرى.

البريطانى الخامس هو أقلهم تواجداً، أو أقلهم قضاء للوقت معنا، تركنا على ما أذكر يومى الجمعة والسبت ثم عاد يوم الأثنين ليتركنا إلى النهاية. وهو نحيل، ذو أفكار مركزة، نشيط، ساهم بكثير من الجهد فى مجموعات العمل التى حضر فيها.

أما البريطانى السادس فهو مستر لاكانى أستاذ الإحصاء الذى حدثتك عنه وهو من أصل عربى هندى.

أحدثك عن الأمريكان الأربعة..

أطيبهم هو الدكتور فولز، يعمل مع أبحاث الفضاء، ومقره فى ميتشجن، رجل طيب ممتلىء الجسم، هادىء الصوت، حكيم، على خلق كريم، دار حديثى معه حول صعوده الفضاء!!، وقد أتيحت له الفرصة بالفعل، ولكنه أراد، كما يقول، أن يحتفظ بنفسه لأولاده!!.

دافيد إيفانز هو الأمريكانى الثانى، أستاذ فى جامعة بيروت، متزوج من لبنانية، رافقته فى المؤتمر، أصبح خبيراً بأمور لبنان وقبرص، وحجز الطائرة إلى قبرص ومن قبرص، وكيف يكون فى المطار قبل موعد الطائرة بساعتين على الأقل، كان الوحيد الذى اصطحب زوجته إلى المؤتمر، تخصصه فى علاقات الموت Predator/ Prey relationships، وهو تخصص يناسب أجواء بيروت تماما!! فى تلك الفترة التى انعقدت فيها الندوة.

الأمريكى الثالث هو وارلتون، وسيم الوجه ولو حلق لحيته لأصبح أوسم، وهو شاب ممتلىء صحة وعافية.

الأمريكى الرابع ماسارو من أصل إيطالى يعيش فى بنسلفانيا، يضحك كثيراً من نكات الإيطالى الأول. يدخن الغليون. واسع الأفق، طيب القلب، له ابن أوشك على بدء دراسة الطب، وينوى أن يدرسه فى إيطاليا، أقول لأنها رخيصة فيصحح لى ويضيف ويقول: لأن البنت التى يحبها من شمال إيطاليا!!.

❑

كان هناك اثنان من النرويج أما الأكبر وهو أستاذ الزراعة فقد حدثتك عنه، وأما الثانى وهو لايزال دكتوراً فحسب (أى ما يناظر مدرسا) فمشتعل نشاطاً، رافقنى من

مانشستر إلى الفندق عند وصولى، وكان أول مَنْ غادرنا بانتهاء الأسبوع الأول، لاينى يعبث فى لحيته وفى شعر رأسه ثم يعبث بأفكارنا، له تجديد فى الأفكار، ونشاط فى وضع البرامج.

❑

فاندجا النيبالى كأنه شاب صعيدى فى كل شيء ووجهه أقرب ما يكون إلى وجوه أهل أسيوط، حتى تعليقه عندما سألناه الحديث عن مشكلات البيئة فى نيبال، ومَنْ له اليد الطولى فى تقرير أمور البيئة؟ أجاب إن الذين يقررون الأمور من طبقة غير طبقة الشعب، ولهذا لا يحسون بالبيئة! يالله، كأنه كالكلام الذى فى كتبنا عن ملوك قبل الثورة!! يرحم الله الجميع.

بريطانيا.١٩٨٣



رحلات شاب مسلم

بقلم الأستاذ أحمد زكى عبد الحليم

يظل أدب الرحلات متعة وثقافة، حيث يكشف للإنسان مجاهل المكان والإنسان فى مناطق متفرقة من هذه الدنيا، فنعرف ما لم تكن نعرف، وندرك عن أخينا الإنسان فى مكان ما لم تطأه أقدامنا ما يدل على أن البشرية غابة مجهولة، كلما سعيت فيها أكثر، عرفت وتعلمت ودهشت وقارنت، لكن الطبيب والكاتب والأديب الدكتور محمد الجوادى أراد أن يضيف إلى كل هذه الجوانب ما يرتبط برؤيته الخاصة، وبالتحديد فى المجال الحضارى، فهو يرى أن كثيراً من الأشياء يمكن أن تتغير فيما لو نظرنا إلى الأمور من زاوية حضارية، ولعل أكثر هذه الجوانب الحاحا عليه هو ذاك الجانب الذى يتصل بالانتاج الإنسانى، حيث يرى أن قدرات الإنسان لا يجوز أن تقف عند أعمال صغيرة أو تافهة. وإذا كان من الضرورى أن يحدث ذلك. فمن الأفضل أن نعترف بالبطالة الحقيقية.

الكاتب يروى لنا تجربته الشخصية فى أربع دول، هى الهند، وأمريكا، وإيطاليا، وبريطانيا، وهو فى كل هذه البلدان لا ينسى لحظة واحدة أنه مصرى، وأنه طبيب، وأنه شاب لديه من طموح المستقبل ما يدفعه إلى أن يرصد كل تجارب الآخرين وخبراتهم. ولكنه شاء أن يضيف إلى العنوان عبارة «شاب مسلم» دون أن يعنى هذا أكثر من تأكيداً الهوية.

يقول الكاتب فى مقدمته:

« ليسمح لى القارئ أن أؤكد له ما يعرفه سلفا من أن خير ما ينبغى أن نعلمه لأنفسنا هو حب المعرفة، وكيف السبيل إلى المعرفة. فإذا أحسسنا أنه لم يكن لنا نصيب كاف أن نستمتع بهذا الحب ولا بالرغبة إليه بالقدر الكافى، فلننصرف إلى الجيل القادم لا لنعلمه هذا ولكن لنعمل على ألا يحرم من هذه الفرصة ».

ويضيف:

« لم تعد الحياة اليوم سواء فى الرحلات أو فى غير الرحلات تحتاج إلى الخبرات الشخصية المحدودة، ومع هذا فإنها إذا احتاجت إليها فلن تحتاجها بقدر عشر أعشار ما تحتاج إلى طريقة التعامل مع المعلومات ».

وتذهب مع الكاتب إلى الهند، لنرى صورة من الفقر الشديد إلى جانب أنها «صورة بلاد هى على ما أعتقد صاحبة أكثر الأنظمة الديمقراطية اكتمالا فى العالم الثالث».

أما فى الولايات المتحدة الأمريكية، فقد رأى كيف تدور عجلة الحياة فى سرعة رهيبة، وكيف يخيل للمرء أنه لا أسرار هناك فى أى مجال من المجالات، ولكن مع التدقيق يتضح أنه لا سر مهما كان صغيراً يمكن أن يتسرب، ويدهشه أيضا أن المرأة

الأمريكية تتزوج فى الرابعة عشرة من عمرها، وأن كثيراً من السيدات يجرين عمليات جراحية لمنع الإنجاب، وأن أغلب قصص الحب فى الزواج المبكر تنتهى بالفراق.

ويتحدث عن هذا الذى يجرى متناقضاً فى إيطاليا، حيث تنتهى من الإجراءات فى سرعة، ولكنك تفاجأ فيما بعد بأنه لا توجد حاملة تضع عليها حقائبك. ويقدم لنا تفسيرات متعددة لاعتبار إيطاليا قاع السلة الأوروبية.

وتنتهى الجولة فى بريطانيا، بلد التقاليد العريقة، والحدائق التى تشغل مساحة معقولة، ومترو لندن، ومطار لندن الذى يعتبر مطار العالم، والحرص على أن تكون الكثافة السكانية منخفضة فى المناطق السكنية الجديدة.

وهكذا تذهب فى هذه الرحلات الأربع، فتجد على الدوام أن الدكتور محمد الجوادى صديق يتحدث إليك فى تلقائية، وفى فهم، وفى موضوعية، وفى استيعاب.

مجلة حواء

رحلات شاب مسلم

بقلم الأستاذ شعبان أبو ذر

تحت هذا العنوان «رحلات شاب مسلم» صدر كتاب جديد للكاتب الشاب الدكتور محمد محمد الجوادى وهو الكتاب السادس عشر فى سلسلة كتبه التى تناول معظمها سير بعض الشخصيات المصرية فى مجالات العلم والفكر والأدب والعسكرية.. وفى كتابه الأخير لا يبتعد كثيراً عن منهجه فى كتابة السير بل يستمر فى نفس الاتجاه لكنه هذه المرة لا يسير مع شخصية معينة بل ينتقل فى المكان والزمان واصفا وشارحا ومحللا الأبعاد السلوكية والاجتماعية لعدة مجتمعات وكثير من الأشخاص.

يضم الكتاب أربعة فصول يعرض فيها الكتاب رؤيته وتجربته الشخصية مع أربعة مجتمعات هى الهند والولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا وبريطانيا، من خلال زياراته لهذه الدول للمشاركة فى مؤتمرات دولية.

فى حديثه عن رحلته إلى الهند يقدم الكاتب مجموعة ظواهر أساسية للحياة هناك أهمها.. الفقر والفوضى وارتفاع الأسعار وجمال الطبيعة.. وهو يصف الفقر هناك

قائلاً: « ليس الفقر فى الهند راجعاً إلى قلة الموارد ولا إلى كثرة السكان.. الفقر فى الهند هو فقر عمل.. ليس فى الهنود أنفسهم بلادة ولا أحجام عن العمل ولا رضا بالذل ولا الفقر ولا بالكسب القليل، وإنما المسألة فى بساطة شديدة أنهم لا يجدون ما يعملون ». ويقدم الكاتب شواهد على ظاهرة الفقر بكثرة الحفاة وسكان الأكواخ وباعة الفول السودانى المقشر والحمص والترمس. ويقول إن أكثر من ٢٠ ٪ من الأيدى العاملة هناك تقضى حياتها فى مثل هذا النوع من التجارات. ويشير كذلك إلى كثرة المتسولين وهم من كل الأعمار.

ولا ينسى الكاتب فى معرض استهجانه لهذه الظواهر أن ينبه إلى انتشارها فى المجتمع المصرى أيضاً فى الوقت الحالى.

وفى ثنايا هذه الرؤية القادحة يمتدح الكاتب قدرة المواطن الهندى على العمل وجلده فيه وحرصه على التكسب وإحساسه بميراثه الحضارى.

يقول: « كنت أتفحص الأجهزة وكلها هندية الصنع.. ولاحظت إنهم يحرصون على ذكر اسم العالم الذى اخترع الجهاز أو طوره. وكنت أبحث عن جهاز من هذه الأجهزة جميعا لم يصنع فى الهند فلم أجد! »

وفى الفصل الثانى يقدم محمد الجوادى انطباعاته عن مظاهر الحياة داخل الولايات المتحدة الأمريكية، ويبدى تقديراً خالصاً للنظام والتقدم العلمى هناك، وسهولة الحصول على المعلومات.

أما الصورة التى يقدمها الكاتب عن رحلته إلى إيطاليا فليست أحسن حالا من تلك التى قدمها للهند.. فهو يقدر أن الشعب الإيطالى صاحب حضارة قديمة غير أن حياته الحاضرة يشوبها كثير من الارتباك وسوء التنظيم وأكثر الشواهد على ذلك ارتفاع الأسعار وكثرة الطوابير وطولها وسوء الإدارة.

ويعرض الفصل الأخير تفاصيل عن رحلة الكاتب إلى بريطانيا وهو لا يخفى إعجابه واحترامه منذ الوهلة الأولى للنظام والسلوك ومظاهر الحضارة الحديثة هناك.. وقد بدأ هذا الإعجاب منذ هبوط الكاتب فى مطار لندن.. فمطار لندن هو مطار العالم، وهذا أمر لا يستدعى المناقشة،.. وكذلك مترو لندن، وحدائق بريطانيا القومية والتى تشغل ٩ ٪ من مساحة الدولة، وهى حدائق تحتوى على الحيوان والأسماك والطيور والنباتات وإلى جانب ذلك تضم الكتب المصورة والمرسوم التى تضم معلومات أساسية عن أصناف الحيوانات والطيور والأسماك والنباتات..

جريدة النور

رسالة من قارئ

رأفت خميس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على نعمائه والصلاة والسلام على أشرف المرسلين أما بعد

الأستاذ الدكتورمحمد محمد الجوادى

فى بداية رسالتى أتوجه إليك بالشكر على إعطائى دقائق من وقتك الثمين لقراءة رسالتى المتواضعة ..

كم تحتاج المكتبة العربية إلى كتاب فى أدب الرحلات فقليلة هى الأعمال الأدبية هذا الشأن وهناك مَنْ يكتبون فى أدب الرحلات بطريقة متميزة واعتقد أنك قد بدأت تضع قدمك على أول الطريق فى هذا الصدد وأنا لا أقول ذلك من قبيل الصدفة أو من باب المجاملة أو أقول هذا من فراغ ولكن من حقيقة مؤكدة ولابد من توضحيها:

الصدق: إننى أرى أنك قد نقلت الصورة واضحة وبصدق إلى أبعد الحدود والابتعاد عن التكلف والافتعال والانحياز وأرى أنك كنت تكتب كل ما تمليه عليه نفسك وكانت كلماتك هى صوتك الداخلى المعبر.

إنه لشيء يدعو إلى الافتخار والاعتزاز بالنفس لو أكرم الله الإنسان بامتلاك جواز سفر أمريكي وحسب معلوماتي أن هذا الجواز يفتح لك الأبواب الموصدة وأنه لا يحتاج من السلطات إلا نظرة واحدة في الجواز لا أكثر ولا أقل، وليس مثلما تفعل السلطات الأخرى تعرض الجواز للتحليل وإنه شيء يدعو إلى الأسف لعدم قدرة جواز السفر المصري على فعل ذلك ويعطي لك هذا الجواز الأمريكي السحري الذي له ثقله ووزنه بين جوازات سفر العالم المختلفة الشعور بالعظمة وقيمة الفرد وآدميته.

أما عن رحلتك إلى بلاد الغرائب والعجائب إلى أرض التراث إلى الهند فانها تعطي لي انطباعا أن التقدم التكنولوجي قد وصل إلى الهند ولكن التقدم البشري لم يصل بعد. أما عن تفشي ظاهرة الفقر والحياة غير الكريمة فهذه هي مخلفات الاستعمار.. فإن ذلك كان من نتيجة الاستعمار والانقسام الذي حدث في بلاد الهند وتعدد الطوائف والعقائد وأنك قد نقلت الصورة واضحة وبمنتهى الصراحة المطلقة.

واعتقد أن الهند قد سبقتنا في اختراع وصنع سيارة ولا غريب ولا عجيب في بلد ذات ألف ديانة وخمسين لغة..

❑

أما في الباب الثاني الخاص بالولايات المتحدة الأمريكية فهذه هي أمريكا التي تنادي وتنشد الحريات وتبحث عن قيمة الإنسان دائماً ولا عجب في بلد قادرة على سحق الكرة الأرضية بالقنابل الذرية في استحداث أحسن النظم للرسائل وربط جميع أنحاء الولايات بعضها البعض.

وقد أعجبني رأيك الجميل حول متاعب البشرية وهو (إراحة البشر من البشر) قمة التعبير عن معاناة يومية يعيشها مواطنو دول العالم الثالث والشعوب النامية فعندما نتعامل أو يكون هناك احتكاك بمختلف فئات المجتمع سنشعر بهذا التعبير إلى أبعد الحدود.

وعندما تقابلت سيادتك بأحد الموظفين فى وزارة الخارجية وكان اللقاء بسرعة البرق فهذه هى قيمة الوقت والأمريكان يعرفون جيداً قيمة الدقيقة وليس هذا فقط ولكنهم يعرفون قيمة الثانية.

أما عن الخريطة فهى تعتبر أبسط شيء عرفته التكنولوجيا فى أمريكا أما عندنا فى مجمع التحرير فالله أعلم هل يعرف الموظفون أماكن مكاتبهم أم لا..

وهذا الغباء الشديد الذى يظهر بوضوح على السكرتيرات الأمريكيات ليس بغباء ولكنه فى رأيى الشخصى ينشأ من منطلق أن كل إنسان أمريكى له مجال تخصصه ولا يستطيع أن يضيع وقته هباء.

❑

ثم ننتقل بعد ذلك إلى الباب الثالث الخاص بإيطاليا وهناك علاقة وثيقة بين مصر وإيطاليا فهى تقع فى حوض البحر الأبيض المتوسط وترتبط بمصر من الناحية الحضارية ارتباطاً تاريخياً واعتقد أن إيطاليا تشبه مصر بنسب متفاوتة فى اللامبالاة.

❑

أما عن بريطانيا مخترعة كرة القدم التى أصابت الشعوب بالهلوسة فى عصرنا الحديث فهذا البلد يستحق الاحترام والتعظيم لما له من عراقة وتاريخ طويل يخدم البشرية فى كافة المجالات.

أما عن حديقة كمبيريا فهذه هى العقليات التى تقدر قيمة الطبيعة وتحترمها وتقدر تأثير البيئة على صحة الإنسان.

وعن الشخصيات التى تعرضت لها بوضوح فى هذه الرحلات الممتعة فهى خير

مَنْ تمثل بلادها لما تحمله من قدرات عقلية وثقافية وعلمية جديرة بالاحترام وهى على قدر ليس بقليل فى الدفاع عن البيئة والدفاع عن أوطانهم.

وأخيراً أقول لك أنك قد سافرت مع قلمك وأمتعتنا برحلات ظريفة ومفيدة واتسمت هذه الرحلات بالوضوح التام مع النفس والصراحة التى نفتقدها هذه الأيام.

.... / محمد الجوادى

لك منى تحياتى وإعجابى وفى انتظار المزيد من المؤلفات وشكرى العميق على قراءة رسالتى .

وتفضل بقبول فائق الاحترام

رأفت خميس خليل
الإسكندرية

رسالة من قارئ

خالد عبدالله أبو العزم

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزى الأستاذ الدكتور محمد الجوادى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرسل إليك هذا الخطاب بعد أن انتهيت من قراءة كتابك الجميل الشيق الذى اشتريته من معرض القاهرة الدولى للكتاب رقم ٢٢ والكتاب هو عن أدب الرحلات واسمه «رحلات شاب مسلم» وحقيقة يا أستاذى العزيز واسمح لى بأن اعتبرك أستاذى وعزيزى أيضاً فأنا مازلت طالبا.

حقيقةً اسم الكتاب لفت نظرى، وما ترددت فى أن اشتريه، أولاً لأنه يحمل كلمة شاب مسلم، ثم الشق الأول من الاسم وهو شاب؛ معنى ذلك أن انطباعه فى رحلاته انطباعات شبابية قريبة إلينا نحن الشباب.

ولا أطيل على سيادتكم فإننى معجب منذ فترة كبيرة بكتب أدب الرحلات جداً ولا أخفى عليك لو لم أقرأ على غلاف الكتاب أن الرحلات لشاب مسلم لكنت ترددت وفكرت وفتشت فى جيوبى أحصيت ما أحمله من نقود حتى اشترى هذا الكتاب ... ولكن لم أفعل ذلك لأن الرحلات هى لشاب مسلم فلابد أنها تحمل انطباعاً خاصاً.

وأنا آسف جداً لهذه المقدمة الطويلة.

وإليك انطباعاتى على الكتاب وأرجو من سيادتكم أن يتسع صدركم لها ولا تنس أنها انطباعات شاب مبتدىء فى القراءة فاعذره إن كتب انطباعاً معيناً هو ليس مهم ولكن هذا ما أحس به.. والآن:

أولاً: إن الكتاب شيق وجميل وسهل المعنى والفهم وعندما قرأت عن رحلتك إلى الهند ورأيك عن الهنود بأنهم ليسوا فقراء لأنهم يحبون الكسل والتنطع وإنما الهندى صبور يصبر على أى شىء مهما كانت صعوبته وهذا الانطباع من الشخص الذى يصف رحلته انطباع أحبذه بمعنى أنه يجب على مؤلف أدب الرحلات أن يذكر تعليقاته وآرائه على ما يراه ولا يكتفى بالوصف فقط وهذا ما أحسسته واستمتعت به عندما قرأت مقدمة الكتاب الطويلة الجميلة المفيدة، وعندما ذكرت أننا نعيش فى عصر المعلومات التى يجب أن نتعلم كيف نتصرف معها، وليست الخبرات الشخصية، مع أنى لست متفقاً تماماً معك فى بعض الأشياء فكل له أهمية وإن ما ذكرته عن رحلتك فى أمريكا تفيد أن المعلومات لها أهمية كبرى فى تشكيل حركة الناس ولكن الخبرة الشخصية قد يفيد جداً فى بلد مثل إيطاليا التى ذقت فيها أنت الأمرّين بتشديد الرّاء حيث صُعقت جداً فى وصفك لإيطاليا وشعبها ومدى تخلفها وسيطرة الروتين عليها مع أن التاريخ يحكى لنا مَنْ هى إيطاليا التى كانت من أكبر امبراطوريات العالم القديم والحديث.

وأما حديثك عن أشخاص المؤتمر العالمى للبيئة الذى كنت مشتركا فيه نيابة عن مصر وممثلاً لبلدنا مصر: أحب أن أخبرك ك ركزت كثيراً على الأشخاص أكثر من موضوع المؤتمر نفسه.

الكتاب يحمل اسما شيقاً وجذاباً، وجميل منك أنك اخترت هذا الاسم «رحلات شاب مسلم»، ولكن الإنطباعات التى ذكرتها والتى ربطت بينها وبين الإسلام وأخلاقه وأحكامه وآدابه كانت قليلة جداً جداً.

وأخيراً أشكرك جداً جداً لأنك أتحت لى قراءة مثل هذه المعلومات الشيقة والجميلة عن بلاد أتمنى أن أذهب إليها وأراها ولكن لم تأت الفرصة بعد.

وأتمنى أن تكتب عن رحلاتك الماضية والقادمة بإذن الله، وتضعها فى كتاب آخر حتى تتيح لى ولغيرى من الشباب معرفة ما لم يعرفوه عن تلك البلاد من منظور شاب مسلم متعلم ووصل إلى أعلى درجات العلم. وهو ما يعنى أنه سيكون ناضج الفكر، وسيكون قدوة لنا نحن الشباب، وأتمنى أن يكون ذلك قريباً جداً بإذن الله . وأتمنى لك من الله مزيداً من النجاح والتوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

□ فى التراجم

- الدكتور محمد كامل حسين (جائزة مجمع اللغة العربية) (طبعتان) ١٩٧٨، ٢٠٠٣
- مشرّفة بين الذرة والذروة (جائزة الدولة التشجيعية)(طبعتان) ١٩٨٠ ، ٢٠٠١
- الدكتور أحمد زكى - (طبعتان) ١٩٨٤ ، ٢٠٠٣
- مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل - ١٩٨٤
- سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض - ١٩٨٤
- الدكتور على باشا إبراهيم - ١٩٨٥
- الدكتور سليمان عزمى باشا - ١٩٨٦
- الدكتور نجيب محفوظ باشا - ١٩٨٦
- توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية - ١٩٨٨

- اسماعيل صدقى باشا ـ ١٩٩٨
- سيد مرعى ـ ١٩٩٩
- يرحمهم الله ـ ١٩٨٤
- مصريون معاصرون ـ ١٩٩٩

□ دراسات أدبية ولغوية

- كلمات القرآن التى لانستعملها (طبعتان) ـ ١٩٨٤
- على هوامش الأدب ـ ٢٠٠٣
- أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى(طبعتان) ـ ١٩٩٠
- من بين سطور حياتنا الأدبية ـ ١٩٨٤

□ دراسات نقدية لكتب السير والمذكرات

- فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين ـ ١٩٩٧
- مذكرات وزراء الثورة ـ ١٩٩٤
- الثورة والحرية: مذكرات المرأة المصرية (طبعتان) ـ ١٩٩٥ ، ٢٠٠٣
- نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار (طبعتان) ـ ١٩٩٦ ، ٢٠٠٣
- محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء ـ ١٩٩٩
- الأمن القومى لمصر: مذكرات قادة المخابرات والمباحث ـ ١٩٩٩
- من أجل السلام: مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية ـ ١٩٩٩
- الطريق إلى النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧) ـ ٢٠٠٠
- النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٧٣) ـ ٢٠٠٠
- فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧ – ١٩٧٢) ـ ٢٠٠٠
- على مشارف الثورة : مذكرات وزراء الملكية (١٩٤٩ – ١٩٥٢) ـ ٢٠٠١
- فى خدمة السلطة : مذكرات الصحفيين ـ ٢٠٠٢

❑ أعمال موسوعية

- القاموس الطبى نوبل [بالاشتراك مع د. محمد عبد اللطيف] ـ ١٩٩٨
- الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء) ـ ١٩٨٩ ـ ١٩٩١
- دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث ـ ١٩٨٧
- مجلة الثقافة [١٩٣٩ ـ ١٩٥٢]: تعريف وفهرسة وتوثيق ـ ١٩٩٣

❑ أدبيات التاريخ المعاصر

- التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة ـ ١٩٨٦
- الوزراء (طبعتان) ـ ١٩٩٥، ١٩٩٧
- المحافظون (طبعتان) ـ ١٩٩٥
- البنيان الوزارى فى مصر [١٨٧٨ ـ ١٩٩٦] (طبعتان) ـ ١٩٩٦، ٢٠٠٠
- النخبة المصرية الحاكمة [١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠] ـ ٢٠٠١
- قادة الشرطة فى السياسة المصرية [١٩٥٢ ـ ٢٠٠٢] ـ ٢٠٠٣
- كيف أصبحوا وزراء .. دراسة فى صنع القرار السياسى ـ ٢٠٠٣

❑ فى الفكر السياسى

- الفلسطينيون ينتصرون أخيراً ـ ٢٠٠٣
- المسلمون والأمريكان فى عصر جديد ـ ٢٠٠٣

❑ فى الفكر التربوى

- مستقبل الجامعة المصرية ـ ٢٠٠٠
- آراء حرة فى التربية والتعليم ـ ٢٠٠١
- تكوين العقل العربى : مذكرات المفكرين والتربويين ـ ٢٠٠٣

❑ فى الشئون العامة

- القاهرة تبحث عن مستقبلها ـ ٢٠٠٠
- مستقبلنا فى مصر: دراسات فى الاعلام والبيئة والتنمية (طبعتان) ـ ٩٨٥
- الصحة والطب والعلاج فى مصر ـ ١٩٨٧
- التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار ـ ٢٠٠١

❑ وجدانيات

- أوراق القلب [رسائل وجدانية] ـ ١٩٩٤
- أوهام الحب [دراسة فى عواطف الأنثى] ـ ١٩٩٩

❑ من أدب الرحلات

- رحلات شاب مسلم(ثلاث طبعات) ـ ١٩٨٩ ، ١٩٩٦ ، ٢٠٠٣
- شمس الأصيل فى أمريكا (طبعتان) ـ ١٩٩٤ ، ٢٠٠٣

❑ فى طب القلب

- أمراض القلب الخلقية الصمامية ـ ٢٠٠١
- أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات ـ ٢٠٠١

المحتويات